الأرض الحافية

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(3809 /7 /٢٠١٩)

٨١٣.٠٣
الفقيه، ابراهيم ذيب
الارض الحافية /ابراهيم ذيب الفقيه ._ ط٢ ._ عمان : دارالايام للنشر

الطبعة الثانية 2020

دار الأيام للنشر والتوزيع
عمان – ش. الملك حسين – وسط البلد أول طلعة
جبل الحسين – بجانب سرفيس جبل الحسين خط 9
ص. ب 925636 – العبدلي 11190 الأردن
هاتف : 4633362 - 6 - 00962 فاكس: 4633352 - 6 - 00962
جوال : 707630- 795- 00962 - 509925-797- 00962
E-mail: salah_tellawi@yahoo.com
alayamdar@gmail.com

الأرض الحافية

إبراهيم الفقيه

تنويه:

بعد سنوات طويلة، التقيتُ بأحد الزملاء القدامى "أبو سعيد".. كان في خريف عمره بعد أن ذوى شبابه وذاب في غربته، سألته عن غيبته الطويلة؟، تنهد وقال إنه أمضى عمره في الفراغ، بعد أن عاش حياة أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة.. أضاف إنه دخل الحياة من باب، وخرج من باب آخر، دون أن يحقق لنفسه شيئاً.. ثم ابتسم ابتسامة ساخرة وأضاف: أنا مثل "جبر".

سألته: من يكون جبر وما حكايته؟.

قال أبو سعيد: أذكر أن جدي قصّ عليّ هذه القصة منذ أيام طفولتي، وما زلت أحفظها عن ظهر قلب.. فقد قيل أن شخصاً يُدعى جبر، زار إحدى القرى، وقبل أن يدخلها شاهد بعضاً من رجالها يحتشدون قرب المقبرة، فشاركهم جنازة فقيدهم، وجلب انتباهه ما كان يُكتب على القبور.. فلان عاش ساعتين، فلان عاش خمس ساعات، فلان عاش يومين.. وهكذا.. استغرب الأمر وسأل أحدهم عن الأمر!، فقيل له بأن أهل القرية يحسبون الساعات أو الأيام أو السنوات التي عاشها الإنسان سعيداً في حياته.. وهذا ما يُحتسب من عمره فقط.. فقال له: إذا شاء القدر وجاء أجلي في ديرتكم، فاكتبوا على شاهد قبري "هذا قبر جبر.. من بطن أمه للقبر".

دعوته للبيت ليتحدث ويقول ما في جعبته.. اعتذر وقال إنه يعاني من ألم في صدره، وسيقص حكايته في ليلة تالية..

لم أره بعد ذلك اليوم، وقد سمعتُ أنه أصيب بذبحة صدرية، ووافاه الأجل أثناء نقله إلى المستشفى.

بعد أكثر من عام، جاءتني أرملته تحمل مجموعة من الأوراق المبعثرة، قالت إنها مذكرات كتبها المرحوم "أبو سعيد" على مراحل، وقد أوصاني أن أعطيك إياها لتقرأها وتنشرها إذا استطعت.

أحسستُ وأنا أتصفّح الأوراق، بِغصّة الاغتراب عن الوطن في سبيل لقمة العيش.. لهذا، ووفاء لصاحبي، أدعو القارئ العزيز ليتصفّح ما خطه أبو سعيد بقلمه في متاهته الطويلة.

***

عزيزي القارئ ..

أنا "أبو سعيد"، لست من أصحاب الخيال الواسع، الذي يستطيع من خلال أحلامه أن ينسج رواية تملؤها الأساطير والخرافات.. ببساطة أنا إنسان عادي، أعيش واقعي، أتعايش معه وأكتب عنه.. لا أترك العنان لخيالي يبحث عن شيء لا أستطيع تحقيقه قبل أن ألجمه.. أحب الناس وأحب عملي وأخلص له، لأني بكل بساطة أعمل "ممرضاً".

ولأني إنسان كبقية البشر أطمح بتحسين وضعي الاقتصادي، خاصة بعد أن عانيت كما عانت الشعوب العربية ما عانت من خسارة بعد نكسة حزيران في القرن الماضي، أو ما يسمى بحرب الأيام الستة، التي انتهت بقضم أراض جديدة من ثلاث دول عربية.. فقد آثرتُ الغربة وتعاقدت مع إحدى الدول النفطية براتب أفضل، وفي اعتقادي أن أعود إلى الوطن فيما بعد ميسور الحال، أملك بيتاً وأفتح مشروعاً يؤمّن مستقبلي ومستقبل أسرتي.. لكني وجدت نفسي مدفوعاً إلى وسط الصحراء، للعمل في قرية تبعد عن الحضارة والتكنولوجيا بُعدنا عن الشمس.. وعلى رأي المثل القائل "الأعور بين العميان مفتّح"، فقد وجدتُ نفسي أعيش بينهم كسلطان.. غير أني وجدت أيضاً بالمقابل، أن الإنسان في الصحراء تتهشم ذاكرته ويفتقد فصول الطبيعة الأربعة، ينسى الألوان الطبيعية، ويعيش فقط فصلين ولونين.. الحر والبرد،

والأبـيض والأسـود.. أنـا لا أريـد أن أسـتبق الأحـداث، دعـوني أسلسلها في ذاكرتي أولاً بأول..

***

متاهة غريب

من نافذة الطائرة التي كانت تقترب من المطار، تُقلّني وزوجتي إلى مكان عملي، شاهدتُ أعمدة من اللهب وسط أنوار بعيدة خافتة.. في البداية اعتقدتُ أنها النيران التي يشعلها الأعراب في الليل، لتدل على مكان وجودهم.. عشرات القصص عبرت ذاكرتي تلك اللحظة وأنا أتذكر حياة البادية والبداوة.. قطعت المضيفة حبل أفكاري، وطلبت من الركاب ربط أحزمة المقاعد استعداداً لهبوط الطائرة.

وفيما كانت المضيفة تعلن عن درجة حرارة الجو ونسبة الرطوبة، وقف الركاب واندفعوا إلى باب الطائرة.. وقبل أن أطأ الأرض، أحسست أني ألج أحد حمامات "السّونا"، لارتفاع درجة حرارة الجو ورطوبته، التي عرّقت جسدي في ثوان معدودة.

داخل المطار، تحت الأنوار الساطعة، شاهدتُ عظمة البناء، اعتقدتُ أن الطائرة هبطت في أحد مطارات أوروبا، وأخطأ ربانها في مكان الهبوط.. خاصة وأنا أشاهد هذا العدد من المسافرين والقادمين الذين يعجّ بهم المطار، ولا يتحدثون اللغة العربية، غير أن منظر الرجال الذين يرتدون الثياب البيض بلحى سوداء، ويُرحبون بالقادمين.. أقنعني بأنني وسط مطار إحدى الدول الخليجية.

تلك الليلة نمتُ وزوجتي "نعمة" في أفخم الفنادق.. في أعماقي شعرتُ بارتياح عظيم وزمن الفقر قد ولّى، وأن أحلام الثروة التي كانت تداعب مخيلتي قد بدأت تتحقق.

في الثامنة صباحاً وأنا أغادر الفندق، كانت أشعة الشمس فوق تلك البقعة من الأرض جحيماً لا يطاق.. وبعد مقابلات عدة مع مندوبي وزارة الصحة، قادني أحدهم إلى سيارة جيب، وأخبرني أن أستعد للالتحاق بعملي.. ومن على بُعد كانت النيران التي شاهدتها أثناء هبوط الطائرة، ما هي إلا نيران تشتعل في رؤوس أعمدة ترتفع إلى عنان السماء، بفعل الغاز المتطاير من آبار النفط.

بعد نهار كامل من السفر المتواصل تحت حرارة الشمس، حيث لم نجد مكاناً نرتاح فيه أو شجرة تظللنا، أقنعتُ نفسي بأني في طريقي إلى الجحيم، بعد أن فقدتُ الفردوس الذي تمتعتُ به بالأمس.. لكن السائق طمأنني قائلاً بأننا نتوجه إلى قرية كلها أمراء، وأن أمي داعية لي بالسعد عندما عيّنتني وزارة الصحة في هذه القرية.. ولا أخفي عليكم مدى فرحي بهذا الكلام الذي أعاد لي ولزوجتي البسمة من جديد.. ومن جديد عادت الآمال تدغدغني، وانتقلتُ بأحلامي إلى عالم الخيال وحكايات ألف ليلة وليلة، وسائق الجيب ينهب الصحراء بلا توقف.. ولكم أن تتخيّلوا مقدار سعادتي وفرحي بهذه القرية، التي لا يعيش فيها غير الأمراء. "كما قال السائق".

قبل غروب الشمس، ومن على بُعد، ظهر لنا "الفردوس" الذي نسعى إليه، قرية وسط الصحراء المترامية الأطراف.. مجموعة من بيوت الشعر المتناثرة وسط منخفض سحيق، تتوسطها واحة من أشجار النخيل، يلفها شجر الأثل كما يلف السوار المعصم، وعلى مرتفع خلف الأشجار كانت هناك عدة بيوت طينية متناثرة، لا يتجاوز عددها أصابع اليد.. وفي الوسط بناء كبير بلا سقف، قيل أنه مسجد القرية.

ما أن ترجّلتُ وزوجتي من سيارة الجيب التابعة لوزارة الصحة، حتى تراكض الأولاد نحونا يرقبوننا بدهشة وغرابة، تاركين الإبل والغنم سائبة في الخلاء.. ومن بين البيوت ظهر لنا بعض الرجال بثيابهم البيضاء، وأخذوا يُرحّبون بي على أني طبيب القرية، الذين ينتظرون قدومه منذ أسابيع عدة.. ثم اقتادوني بصحبتهم إلى ساحة كبيرة، قيل لي أنها مضافة الأمير الخاصة بالرجال، بينما تولّت نساء القرية زوجتي، ولا أعرف إلى أي مكان أُقتيدت.

بعد ساعة من الترحاب، وأنا ألوذ بالصمت لأني لا أعرف غير القليل من لهجتهم البدوية، اصطحبني رجل إلى بيت لا يبعد عن المسجد أكثر من مئة متر، قال إنه مستوصف القرية المخصص لعيادة الدكتور وإقامته.

يتكون المستوصف من غرفتين وساحة مربّعة مكشوفة لأشعة الشمس، يحيط به سور يرتفع لأكثر من مترين، تفوح من داخله رائحة الروث والعفونة.. بعد أن أطلعني الرجل على مكان إقامتي، أعادني إلى المسجد.. كان الرجال جالسين على مقربة منه، يفترشون الرمال بانتظار صلاة العشاء.. من جديد بدأوا يرحبون بي بطريقتهم الخاصة.. يصبّون القهوة ذات اللون الأصفر، وأنا أشرب على مضض، حتى كدت أتقيأ كل ما في أحشائي.. ولم يتوقف الرجل اليماني الذي قيل أنه يُكنّى ب "الأقرع" عن صبّ القهوة، إلا بعد أن هززتُ الفنجان في يدي مرات عدة قبل أن أعيده إلى يده.

بعد صلاة العشاء في المسجد المقام قرب المضافة، وعلى ضوء القمر الخافت، قدّموا العشاء ترحيباً بي.. أحضروا صحوناً كبيرة مليئة بالأرز واللحم، واستطعتُ أن أرى بوضوح رأس الذبيحة وأجزاء صغيرة من الأمعاء الصفراء، تتناثر فوق الأرز.. جلس الرجال القرفصاء وبدأوا يتناولون الطعام.. لاحظتُ أنهم يأكلون بيدٍ واحدة دون أن تمتد اليد الأخرى لتقطيع اللحم، اللحم قطعة واحدة، نصف ذبيحة على كل صحن مطبوخة دون أن تنضج.. بعد تردّد مددتُ يدي في الصحن الكبير، أحسستُ كأني أضعها في قدر يغلي، فأعدتها فارغة.. وعندما شاهدني أحدهم علّق قائلاً:

- الدكتور يبغى خاشوكة، ما يعرف ياكل بيده.

أسرع أحد الواقفين إلى الداخل، وعاد وبيده ملعقة ناولني إياها، وضعتها جانباً ومددت يدي إلى الطعام ثانية، متظاهراً بالأكل محاولاً تقليدهم.. وعجبتُ وأنا أراهم يغرفون بأيديهم ويقذفون بما بين أصابعهم من كرات الأرز إلى أجوافهم، دون أن يشعروا بحرارة الطعام.. تظاهرتُ بالشبع وقررت القيام.. ما أن وقفتُ حتى تفاجأ الجميع ووقفوا دفعة واحدة، تاركين الطعام لفوج آخر، كان يقف منتظراً قيامهم بفارغ الصبر. "عرفتُ فيما بعد أن من عاداتهم إذا شبع الضيف وترك الطعام، قاموا احتراماً له وتركوا طعامهم لفوج آخر".

تفرّق الرجال وأخذوا يدعكون أيديهم بالرمل ويتطيّبون بالعطر، وجدتُ نفسي أقلّدهم وأفرك يدي بالرمال.. ثم عادوا يتسامرون ويشربون القهوة حتى الفجر، وأنا أستمع تارة، وأغفو طوراً على حكاياتهم التي لم أفهم منها شيئاً.

بصراحة كنت تعباً، كظمتُ غيظي في أعماقي، وأغمضتُ عينيّ على حبات الرمال المتطايرة بفعل الهواء البارد، الذي أخذ يلسعني في الليل مثل عقارب الصحراء.. ولا أخفي سراً إذا قلت أني شعرت بالزهو، والرجال يدعونني تلك الليلة ب "الدكتور"، وأيقنتُ في قرارة نفسي وأنا أترنّح على الرمال من شدة النعاس والتعب، أنني لا بد وأن أعود إلى بلدي مثقلاً بالذهب والثروة، خاصة وأنني أصبحتُ بقدرة الله "عز وجل" في لحظة "دكتوراً"

يملك بيتاً وعيادة، وسط الأمراء وأصحاب الثروات الطائلة، التي تتحدث عنهم الحكايات والأساطير.

***

لم أنم تلك الليلة، ما أن أغمضتُ عينيّ حتى صحوت على خطوات الرجال بحركاتهم الدائبة، وهم يجيئون ويروحون.. قال أحدهم بأن الأمير "البدر" على وشك الوصول إلى الديرة، بعد غياب دام أكثر من شهر في رحلة عمل إلى بلاد الأجانب.. كان القمر قد غاب وشقشق نور الفجر.. خمّنتُ أن الأمير لا بدّ أن يكون كالذين كنت أراهم في التلفاز، أثناء مشاهداتي للمسلسلات التاريخية.. يأتي على حصان أبيض مُسرّج محجّل وسط مجموعة من فرسان الحراسة، خاصة وأنه يعيش في جو بدوي خالص وسط هذه الصحراء.

بعد فترة ترقب وانتظار، تراءت لنا من بعيد أضواء سيارة تقترب وسط الغبار، تشق الطريق الترابي الموصل إلى القرية.. توقفت سيارة مرسيدس بلون الليل حديثة الصنع.. أسرع الأقرع وفتح باب السيارة، ترجّل منها الأمير بشموخ وتعالٍ واضحيْن.. تمشّى خطوات ووقف أمام أنوار سيارته يصلح هندامه وغترته البيضاء، ويضبط وضع عباءته السوداء فوق كتفيه، ثم مدّ يده لمصافحة الرجال الذين قدموا لاستقباله، وراحوا يمرون من أمامه واحداً بعد الآخر يقبّلون أنفه وصفحة وجهه، ثم يتراجعون للخلف، وهو يقف بشموخ كأنه يستعرض حرساً للشرف..

الأمير بدْر، رجل في العقد الرابع من عمره، طويل القامة عريضها، حنطي البشرة، يتوسط وجهه شاربين أسودين غليظين، ولحية في أسفل ذقنه قصيرة الشعر سوداء أيضاً.

كنت أقف على مسافة قريبة أرقب المشهد.. وعندما جاء دوري تقدمت وصافحته يداً بيد.. قال الأقرع وهو يشير بيده نحوي:

- هذا الدكتور، وصل مساء البارحة..

لم يبدِ الأمير أي اهتمام.. تجاهل ما سمعه ونظر إلى الرجال قائلاً: "الصلاة يا أولاد".. وسار باتجاه المسجد أمام رجال القرية الذين تراكضوا خلفه.

كانت الشمس على موعد مع الشروق، سألتُ الأقرع عن مكان الوضوء، فأجاب بلا اكتراث:

- تيمّم يا دكتور قبل ما تفوتك الصلاة. وقادني إلى باحة المسجد والصلاة قائمة، والأمير يئمّ بالمصلين.

بعد الصلاة وأثناء خروجي من المسجد، اقترب مني الأمير وقال: "عسى تكون الديرة أعجبتك!".. واستمر في طريقه باتجاه الأقرع قبل أن أجيب على سؤاله.. وسمعته يقول له:

- كيف الديرة وأم البزور!.
- الأميرة "الجوهرة" عندها زوجة الدكتور. أجاب الأقرع.
- إذن أروح لعند "العنود".

قال ذلك واتجه إلى بيت طيني قريب وولجه.. تفرق الرجال وسار كل إلى بيته.. اقترب مني الأقرع وقال:

- الأمير وصّاني بيك.. هيا نعمّر لك البيت.

وقبل أن أجيب، نادى على بعض الرجال طالباً منهم مساعدته في حمل ونقل بعض الأغراض والبسط إلى المستوصف، ثم سألني إذا كنت بحاجة إلى شيء!.. فطلبت منه أن يتركني لأستريح.

بعد أن غادر الأقرع المستوصف، استلقيتُ على الفراش، وقبل أن أغفو فُتح باب الغرفة ودلفت زوجتي إلى الداخل، وما أن شاهدتني ممدداً حتى ألقت بجسدها جانبي، وراحت تبكي بحرقة دون أن تتفوّه بكلمة واحدة.

في قرارة نفسي كنت أعرف ما عانت زوجتي طوال ليلة البارحة، وهي تبيت غريبة لأول مرة عند أناس لا تعرفهم، وتجهل عاداتهم وتقاليدهم وحتى لهجتهم.. كما كنت أعرف مدى صدمتها وهي تجد نفسها في قرية نائية، بعد أن أشبعتها أحلاماً بالحياة في مدينة كبيرة، وسعادة لم تحلم بها قبل رحيلنا عن الوطن.

أحسستُ بتمزق في داخلي وهي تنشج بجانبي، أخذتها بين ذراعي وأغمضتُ عينيّ حتى لا تفضحني الدمعة التي تحجّرت

في مقلتي، وكأن زوجتي عرفت ما بي، فأدارت ظهرها لي وتركتني أكابد همومي وحدي.

صحوتُ على طرق متواصل على الباب الخشبي الكبير، وصوت يقول "الصلاة الصلاة"، وعلى جانب مني شاهدتُ زوجتي تحتضن الوسادة غافية والدموع تنساب من عينيها بغزارة.. ورائحة روث الحيوانات الكريهة تنبعث من المكان وتخنق الغرفة.

كانت صلاة الظهر قد حان موعدها، وعليّ أن ألحق بها، فالصلاة عمود الدين، وعليّ أن أحافظ عليها، "كما قال الأقرع صباح ذلك اليوم".

انشغلت زوجتي بعد الظهيرة بترتيب غرفة المنامة وتنظيفها، بينما قام الأقرع بتنظيف الحوش وغرفة العيادة المجاورة، بعد أن أحضر طاولة وسريراً.. وعندما سألته عن السائق الذي أوصلنا للقرية، أخبرني أنه غادر الديرة منذ الصباح عائداً إلى المدينة.

عند المساء، عاد الأقرع واصطحبني وزوجتي إلى بيت الأميرة بناء على طلبها "كما قال".. كان الخدم قد ذبحوا خروفاً بأمرٍ من الأميرة، قطّعوا لحمه وأخذوا يطبخونه استعداداً لعشاء زوجتي.

في بيت الأميرة الذي يُعتبر مضافة للحريم، ولج الأقرع وطلب مني أن أتبعه إلى الداخل.. توقفتُ عند الباب قرب مصباح الكاز

الذي ينبعث منه النور، ومن موقعي استطعتُ أن أرى أكثر من عشر نساء يتدثرن بعباءات سود ويُغطين وجوههن ببراقع، ولم أستطع أن أرى منهن غير عيونهن.. كما استطعت أن أرى بوضوح تلك المرأة التي تجلس في صدر المجلس كاشفة الوجه، وعلى رأسها وشاح أسود، عرفتُ من الأقرع أنها الأميرة، عندما قال وهو يشير إليها:

- الأميرة "المزيونة" تبغى تسلّم عليك.

ابتسمت الأميرة في وجهي وقالت:

- إيش علومك يا وليدي، عساك بخير!، وعسى تكون ديرتنا أعجبتك؟.

ابتسمتُ للأميرة وحمدتُ الله، ابتسمتْ ثانية وطلبتْ من زوجتي أن تتقدم نحوها لمصافحتها، وأضافت وهي تتأمل ملامح زوجتي:

- سلام اليد ما يضر ولا ينفع.. أبغى أحبّك يا بنية من ويهك.

ضحكن النساء وتهامسن وهي تُقبّلها من وجنتيها، وأضافت:

- زينة والله أم عيالك، حليوه هالبنية، ابركي يمبي.

أخلت المرأة الجالسة قرب الأميرة المكان، وجلست زوجتي قربها.. فأضافت الأميرة:

- ما تخجل يا وليدي، اجلس، عساك تكون مثل وليدي الأمير البدر ولد الأمير "مشعل".. أنت في ضيافة الأمير، وأم عيالك في ضيافتي ثلاثة أيام بلياليها.. اجلس يا وليدي، لا تخجل من الحريم.

جلس الأقرع قرب الباب، فجلستُ بجانبه.. قالت الأميرة وهي تبتسم بعد أن ساد الصمت لفترة قصيرة:

- أبغى نتسامر يا وليدي، أهرج شنهو عندك!..

أجلت النظر في الغرفة، سقط نظري على فراشات تحوم حول مصباح الكيروسين.. أضافت الأميرة:

- اسمع يا وليدي، إنت ما تفتهم أحاجينا.. أحزّرك، إن عرفت الجواب أنطيك شاة.. وإن ما عرفت آخذ أم عيالك تنام عندي ليلتين.

ابتسمتُ ولم أجب، وعلت ضحكات النساء وهن يتغامزن وينظرن إليّ.. اعتقدتُ أنها تمزح معي، لكنها أضافت:

- قول يا وليدي.. شنهو غطا الفرْج إدام المايدة؟ .

تصبّب العرق من وجهي وجبيني، سرحتُ بأفكاري بعيداً والأميرة تتحدث عن الفرْج بهذه الجرأة.. نظرتُ إلى الأقرع.. شاهدته يغرق في ضحكة طويلة، وينظر في عينيّ مباشرة.. تنبّه إلى تقاطيع وجهي.. فقال:

- هذا الدكتور إحْضَري، ما يفتهم شيء.. أما أنا أقولك الجواب بعد ما تجاوبيني على سؤالي.. شيء يدخل في الحرمة بشعبتين، تعرفين شنهو!.

انكمشتُ وتقوقعتُ على نفسي، تغامزن النساء وضحكن ثانية، نظرت زوجتي إلى وجهي وأخفت وجهها براحتيها، ولم تعرف

ما تقول أو كيف تتصرف أمام هذه الأحاجي.. قامت امرأة وراحت تصب القهوة السادة.. فقالت الأميرة: أنا أبغى بيالة شاي.

وضعت المرأة دلّة القهوة النحاسية قرب النار المشتعلة في ركن جانبي، وأحضرت للأميرة كوباً من الشاي.. تناولته الأميرة وقالت:

- لا تخجل يا وليدي، الله خلق الذكر للأنثى كما خلق الأنثى للذكر.. علامك تخفي ويهك!.. ولاّ تْريد بُرقع مثل الحْريمات!.

رغم جرأتي وخبرتي بالناس، ومهنتي التي علمتني عدم الخجل أمام الآخرين، إلا أني وجدت نفسي مُحرَجاً وخَجِلاً أمام الأميرة، فتلعثمت ولم أعرف ماذا أقول!.

هبّت زوجتي واقفة واستأذنت بالرحيل.. فقالت الأميرة بلهجة آمرة: "لا تْغادرين البيت يا بنيّة إلا بعد ما تاكلين الزاد، وإنت يا العبد "تقصد الأقرع" خذ الدكتور عند الريايبل للعشاء، وتزورنا باكر يا دكتور.

في الطريق ونحن نسير على ضوء القمر، أخبرني الأقرع وهو يكظم غيظاً في أعماقه، بأن هذه الديرة يعيش فيها طبقتين فقط، الأمراء والعبيد.. قلت له بأن زمن العبيد ولّى وانتهى منذ زمن بعيد، فابتسم وقال "إنهم خِصْيان يُحضرونهم من بلاد الجنوب ليقوموا على خدمة الأمراء والأميرات".. سألته إذا كان

هناك أمراء غير الأمير البدر، فقال بأنهم كثر، والده وإخوانه وأولاده، عدا الأمراء الذين يأتون للزواج من نساء الديرة.

وصلنا المضافة، قبل أن أجلس أحضر الرجال طعام العشاء.. كان مثل الليلة السابقة.. لكنني أحببتُ أن أتأخر في تناول الطعام هذه المرة حتى يبرد.. تظاهرتُ بتناول الطعام معهم، ولم ينتبه لي أحد خاصة وأننا نجلس تحت ضوء القمر الخافت.. فجأة هبّ الأمير واقفاً، فوقف الجميع معه، ووقفتُ معهم مرغماً على ترك الطعام، دون أن آكل منه لقمة واحدة.

بعد العشاء أحضروا اللبن المخيض في صحن عميق يقولون عنه "جوتي"، فشرب جميع الرجال.. وأثناء شرب القهوة العربية الصفراء اللون ذات الطعم الحاد، طلب مني الأمير أن أخبره عن بلدي، وعن كيفية الحياة التي كنت أعيشها، حتى يستطيع أن يوفر لي حياة كريمة في ديرته، كالتي كنت أعيشها.. فهو كما قال رجل حضاري زار معظم بلدان العالم، ويعرف عادات وتقاليد كل بلد.

شعرتُ من خلال كلام الأمير بالاطمئنان، كما شعرتُ بثقة تجاه هذا الرجل الذي أرغمني بحديثه الجميل على حبه وصداقته.. وللمرة الأولى منذ وصولي للقرية، شعرتُ باطمئنان وراحة نفسية كبيرة.. وفي الليل شاركتُ الأمير ورجاله الضحك وهم يلعبون ورق الشدة على نور مصباح الكيروسين، ويجلدون المغلوب، طالبين منه أن يُقلّد القرد في حركاته.

بعد منتصف الليل غادر الرجال المجلس إلى بيوتهم، وعندما هممتُ بالقيام طلب مني الأمير البقاء لحاجة في نفسه.. قام الأقرع، صبّ القهوة للأمير وراح يُحضّر له الشيشة، "الشيشة تشبه النرجيلة، لكنها مصنوعة من النحاس، وتستعمل لتدخين "الجْراك"، والجراك مادة مصنوعة من الفواكه المتخمّرة بدل التمباك والمعسّل".

قال الأمير إنه شعر بارتياح لرؤيتي، وإنه يُحبُّ بلدي كما يحب ديرته وأكثر.. وفيما إذا كنت أرغب بالانبساط، فباستطاعته أن يوفر لي كل ما أحتاجه.

بقيت صامتاً لفترة من الوقت، أفكر في معنى كلامه، استهجنته وأبديت استغرابي.. فأضاف:

- لا تروح أفكارك لبعيد.. خلِّ عقلك معي، أنا أبغى أريّحك..

لم أفهم شيئاً مما قال، وتركني أخمّن ما قصده، أضاف حين آثرت الصمت:

- خلّك على مهلك، باكر تفتهم. ثم قام يقضي حاجته بين الرمال وتركني مع الأقرع وحيديْن.

سألت الأقرع عما قصده الأمير، قال بأن الأمير يستطيع أن يوفر لك المنكر إذا طلبته منه.. أنكرتُ ما قاله وثُرت، وتساءلت كيف يؤم الناس في الصلاة ويفعل ذلك!.. فقال:

- يا دكتور أنت تعزّ عليّ مثل اخوياني، وأنا أريد أصارحك.. الأمير يريد يختبرك ويجس مشاعرك إذا كنت تشرب المنكر!.. يا دكتور اسمع وتصنّع الجهل.

زوجتي لم تحضر تلك الليلة.. بعد صلاة الفجر سألت الأقرع إذا كانت لا تزال عند الأميرة!، فقال بغير اكتراث:

- الديرة أمان يا دكتور، وكل بيوت الديرة بيوتها، ومصيرها تعاود لبيتها.

عند الصباح عادت زوجتي وقالت إنها نامت عند الأميرة، وأضافت: "أصرّت الأميرة أن لا تتركني حتى يتفتّق ذهني عن جواب الفوازير"..

كنت قد نسيتُ ما حدث عند الأميرة، اعتقدتُ أن ما حدث ما هو إلا دعابة وكلام للتسلية والمجاملة.. لكن زوجتي أكّدت أن الأميرة كانت جادة في كلامها وحازمة، ولم تتركها إلا بعد أن أخبرتها إحدى النساء بالجواب.. وضحكت نعمة بملء فيها وهي تقول بأن الإجابات كانت بسيطة جداً.. لِيّة النعجة هي غطا الفرج إدام الطعام.. أما أحجية الأقرع فجوابها البنطال أو السروال الطويل.

أضافت زوجتي بأن الأميرة المزيونة طلبت منها أن تُعلّم بنات الديرة، وتعطيها أجراً مقابل ذلك.. كانت فَرِحة لهذا العرض، فجلستُ معها نتحدث عن الحاضر والمستقبل، وعن القرية التي كدتُ فيها أنسى مهنتي والمهمة التي جئت من أجلها.

بعد أن نامت زوجتي، غرقتُ في صمتي من جديد، تساءلت إذا كان هؤلاء البدو بسطاء فعلاً أم أذكياء بالفطرة.. وفي قرارة نفسي أكدتُ أنهم ليسوا بسطاء فقط بل وأذكياء جداً، وعليّ أن أتعامل معهم على وضعهم، دون زيادة أو نقصان.

***

ديرة الأمراء

توالت الأيام، رحلت فصول وأتت فصول على وجودي في القرية، تأقلمتُ مع الواقع الصحراوي.. أصبحتُ "أقرع" القرية الثاني، أقوم مقامه وأشرف على كل صغيرة وكبيرة أثناء غيابه عن الديرة، كما أجلب الأدوية والمستلزمات الصحية من وزارة الصحة في المدينة بنفسي.. تطوّرت العلاقة أيضاً بيني وبين الأمراء والأميرات وأهل القرية، نسائها ورجالها، حتى العبيد كسبت ثقتهم، كما كسبت ثقة الأمير مشعل وحرمه الأميرة المزيونة، وأولاده الأمراء البدر وجفران وزايد والأميرات حصّة والجوهرة والعنود، واعتبروني أحد أفراد ديرتهم بحق.

ولأني أصبحت دكتوراً، فقد استطعت أن ألج إلى أعماق بيوتهم وخبايا نفوسهم، تعرّفتُ على عاداتهم وتقاليدهم، وأتقنتُ لهجتهم البدوية.. وبدورهم كشفوا لي عن محظوراتهم، وأباحوا لي عن خفاياهم وأسرارهم، حتى بتُّ أعرف أدق التفاصيل في حياتهم، وأعرف الكثير من أسرار هذه القرية المليئة بالحكايات والأحاجي، التي لا يصدّقها العقل.

أصبحت أدخل البيوت دون استئذان وبلا موعد كعادة أهل الديرة، كما أصبحت أعالج كل الحالات المرضية من الرشح إلى طهور الأولاد حتى الولادة وأمراض القلب.

خلال تلك الفترة استطعتُ أيضاً أن أقنع الأمير البدر أن يبني مدرسة للذكور وأخرى للإناث.. فاستحسن رأيي وأخذ يطلب استشارتي في الكثير من الأمور، وخلال فترة قصيرة أحضر عمالاً وبنائين من العاصمة، وأقام مدرسة للذكور على طرف القرية الشرقي، كما قام ببناء مدرسة للإناث على طرفها الغربي.. وكذلك استبدل ماتور الكهرباء ووضع أعمدة خشبية في الطرق الترابية، وزيّنها بمصابيح لإضاءة القرية ليلاً، كما قام ببناء سور من الأسلاك الشائكة حول بستان النخيل.. حفر بئراً ارتوازياً واستخرج الماء، وجعل جزءاً من الصحراء القاحلة أرضاً خضراء، ثم أحضر لافتة علقها عند البوابة الكبيرة وكتب عليها "بستان الأمراء" .

أهل الديرة استغلوا الموقف خير استغلال، فمع وجود البنائين والعمال، أقاموا لهم بعض البيوت الطينية على سفح التلة القريبة من البستان، وتركوها فارغة استعداداً لتأجيرها للوافدين الجدد.. وخلال فترة قصيرة من الزمن بدت الديرة في أبهى حُللها، حتى أن بعضهم راح يتباهى ويطلق على الديرة "ديرة الأمراء" بدلاً من كلمة الديرة.

أنا بدوري انتقلتُ من الإقامة في المستوصف إلى بيت أفضل وأوسع قريباً منه، وقد أنجبتْ زوجتي خلال تلك الفترة مولوداً أسميته "سعيد" تيمّناً بالسعد الذي وجدته في القرية.

قبيل عيد الأضحى بأيام قليلة، بدأ الأمراء ورجال القرية يتوافدون بسيارات فخمة من نوع مرسيدس أو جيمس أمريكي، عدا عن الجيبات الإنجليزية الصنع، ذات الدفع الرباعي، فعادت الحياة تدب في القرية من جديد.. حركة دؤوبة، ذبائح، مناسف الطعام، سهرات الرجال في المضافة المكشوفة قرب المسجد، وسيارات من كل نوع ولون متوقفة هنا وهناك محاذية للبيوت الطينية أو قرب بيوت الشعر.

النساء أيضاً أخذن يبدين زينتهن ويرتدين أجمل ما عندهن من ثياب، ويسهرن في مضافة الحريم بانتظار انقضاء سهرة الرجال، بينما يقوم العبيد والخدم بالطبخ والغسل وخدمة الجميع داخل البيوت وخارجها.

بعد العيد بأيام قليلة، وصل إلى القرية مدرّسان جديدان برفقة زوجتيهما، أحدهما يُدعى عبد الجليل أردني الجنسية، والآخر يُدعى شريف سوري الجنسية.. وكذلك وصل من المدرسات جميلة مع والدها أبو راجح، ومريم برفقة والدها أيضاً.. إذ لا يجوز لأي معلّمة أن تتعاقد مع وزارة التعليم إلا برفقة محرم لها.. استأجر المدرسان بيتين متجاورين، بينما استأجرت كل معلمة بيتاً بعيداً عن الآخر.. واستعدت الديرة لأول يوم دراسي إيذاناً بافتتاح مدرستي الذكور والإناث في الأيام القليلة القادمة.

في البادية تسود الحرية بين الرجال والنساء على السواء، وقصص الحب العذري والوله تعم أطراف الصحراء بلا وجل أو حرج، كما يتناقلها الجميع بلا أسرار.. رجال يتغزلون بالنساء علانية، ونساء يخالطن الرجال بفخر واعتزاز بلا تستر أو خوف.. ولا أحد يتهم الآخر، الكل سواسية كأسنان المشط.

في الديرة يصافح الرجل الرجل الآخر بقبلة في جبينه أو بتلامس الأنفين مع تقبيل الكتف الأيمن.. وتصافح المرأة المرأة الأخرى بالقبلات بعد أن تزيل "البُرْقُع" عن وجهها ليتلامس الأنفان.. أما حين يصافح الرجل المرأة فيتم ذلك كما تصافح المرأة مثيلتها.. ترفع البرقع الذي يغطي وجهها ويتلامس الأنفان أيضاً.. وينتهز بعض الرجال الفرصة عند ملامسة الأنفين بأن يخطف قبلة سريعة وخفيفة من وجنة المرأة بعد ملامسة الأنفين.. وتضحك النساء كثيراً مازحات قائلات بأن القبلة "ما هي بْعيب ولا بْحَرام"، فكل أهل الديرة أخوة وأخوات، بشهادة الرضاعة من حليب النيدو وحليب بقرة الأميرة المزيونة.

البُرْقُع تلبسه مَن أكملت أنوثتها ووصلت سن البلوغ، وهو بديل الحجاب، قطعة من القماش الأسود يحجب الوجه والصدر، فلا يظهر من المرأة سوى العينين، ويُربط البرقع بين العينين بخيط رفيع إلى طرحة الرأس.. وعندما يُزال البرقع عن الوجه يظهر جمال المرأة، وجهها الصحراوي وعنقها الطويل وصدرها

العاري حتى منتصف النهدين.. خاصة عند السلام أو الطعام أو هبوب نسمة الهواء عليه.

في القرية يختار الرجل زوجته، والأرملة أو المطلقة لها حرية اختيار الرجل الذي تهواه، وتشعر أنه يناسبها، ولا تأنف من أن تتقدم لخطبته حتى لو كان متزوجاً أكثر من امرأة، وعنده أولاد.

من عادات أهل الديرة أيضاً أن يسبق الرجل المرأة في مشيته، كما لا يأكل معها حتى لو كانت زوجته أو ابنته أو والدته.. وينادون الرجل باسْمه، يقولون فلان بن فلانه.. وكذلك المرأة.. أما الوافدون على القرية والأجانب فينادونهم بكنيتهم لا بأسمائهم، كأن يقولون "أبو فلان".. كما يقولون عن الأطفال والأولاد دون السابعة من العمر "البزور"، ويقلبون حرف الجيم الى ياء كأن يقولوا "يُهّال" بدل جُهّال، و"رِيّال" بدل رِجّال، والجمع "ريابيل".

معظم رجال ونساء البادية أذكياء وشعراء بالفطرة، يُتقنون الشِعر ويرددونه في مجالسهم، كما يحفظون القصائد عن ظهر قلب، ولا ينطقون إلا بالفصحى.

مهر المرأة لا قيمة له أمام المرأة نفسها.. ومهما كان مبلغ المهر، لا بُدّ أن يضاف إليه المصاغ، مثل الأساور الذهبية وعقد الرشراش الذي قد يصل طوله حد الركبتين، والكف والحزام الذهبي.. وإذا طُلّقت المرأة تأخذ كل ما تريده من الزوج.. وإذا

كانت مطلقة أو أرملة وأرادت الزواج ثانية، فإن مهرها يتضاعف، وكلما كثرت عدد مرات طلاقها كلما تضاعف مهرها.

"خزنة" هي الأكثر مهراً في الديرة.. فقد ترمّلت من الزوج الأول، وطلّقها الثاني دون أن تنجب.. وهي الآن تبحث عن الزوج الثالث.. فهي ما زالت تحتفظ بجمالها، وعلى حد قولها اكتسبت خبرة المتعة من بعليها السابقين، فهي فنانة في إثارة الرجال وإغوائهم، والوصول إلى قمة النشوة التي يطلبها الرجل من زوجته.. وتتفاخر بما تكنه في صدرها، لكنها تحتفظ بسر الإثارة لنفسها.. فالزوجة الأولى "كما تقول خزنة" لا تحقق رغبة الرجل ولا تعرف ما يريده منها، وتبدأ مع مرور الأيام بإهماله والاعتناء ببزورها، لهذا يبحث الرجل عن زوجة ثانية وثالثة ورابعة وربما خامسة، بعد طلاق إحداهن، إذ لا يجوز الجمع بأكثر من أربع نساء حسب الشريعة الإسلامية.

لهذا تتفاخر المرأة بالطلاق من الزوج الأول، خاصة إذا لم تنجب منه أطفالاً، والنساء يُفصحن عما يخالجهن من شعور ورغبة حقيقية وشوق تجاه من يُحببن.. ويتفنّن في استمالة الرجال إليهن حين يتبرّجن ويتزيّن بالثياب المطرزة والذهب، وحركات الأيدي والنظرات المثيرة، ويتمايلن في المشي وهزّ الخصر، مثل عارضات الأزياء.

***

مطوّع الديرة

بلا موعد ودون سابق إنذار، هبّت عاصفة رملية بُنيّة اللون سريعة الجريان، قلبت كل شيء رأساً على عقب، قلعت بعض بيوت الشعر من جذورها، بعد أن قذفت بحاجاتها إلى عرض الصحراء.. حملت معها أفاعي الصحراء وعقاربها السوداء، التي نبتت لها أجنحة في صدورها من الأسفل، فلم تعد تزحف، وإنما تطير مرتفعة عن الأرض عدة سنتمترات.. عاصفة الرمال ضربت المكان بقسوة وعنف.. جابت القرية الواهنة والبوادي والصحراء الشاسعة لاهثة بلا تعب.. الرمال تزحف وتتطاير غضبى، تدوّي وتهتاج بقوة خفية، دمّرت كل شيء في طريقها تحت وطء إرادتها العمياء.. قصمت أغصان شجر الأثل، كسرت بعض أشجار النخيل الممتدة جذوره في الأرض عميقاً، وأضافت لجئيرها صفيراً متواصلاً وكأنها تُنذر بتدمير العالم.

قال الأقرع بأنهم يُسمّون هذا النوع من الرياح "طوز"، لم أعد أرى غير أمتار معدودة أمامي.. وفي لحظة عاصفة شعرتُ أني وسط الجحيم، وبدأت ذاكرتي ترسم خرائط وحكايات عن السفر والرحيل إلى أعماق التاريخ والحياة البدائية في الصحراء.

في الماضي كنت أتوق شوقاً إلى مغامرات غريبة وغامضة في أماكن نائية، بعيدة عن المدن الصاخبة، وعن الفساد المتأصل في جوهر الروح.. كنت أحلم بجمال الصحراء، حيث المرء سيد

نفسه وسيد أحلامه.. لكني وجدت صحرائي مسكونة بالشياطين والجن والأساطير والخرافات ونيران الشهوة.. في أعماقي كنت أقارن بين الصحراء وأرض الوطن، فوجدت نفسي أعيش الحنين إلى رائحة المطر، المطر بات سراباً في ذاكرتي..

في الصحراء اكتشفتُ صعوبة الحياة، وليس صعوبة الموت.

على مرمى البصر، وسط كثبان من الرمال الحافية.. شاهدتُ بيوتاً عديدة تنهض وتتناثر في محيط القرية.. لا أمل للرحيل من هنا.. "حدثت نفسي"، موتٌ بطيء وسط الكثبان الرملية والصحراء.. وحر الصحراء نار الجحيم الحقيقية.

في الصحراء، رغم نقائها، شعرتُ أني أعيش بجمجمة فاسدة ودماغ منخور.. أحلامي أُغتيلت منذ ليلة وصولي إلى هذه الديرة، كنت أحلم بمدينة عامرة وأناس متحضرين، وإذ بي أجد نفسي محاصراً وسط الرمال، أتنفس الغبار والروائح الكريهة.

من وسط الغبار والرمال المتطايرة، ظهرت لي امرأة تندفع نحو المستوصف بعد صلاة العصر مباشرة.. بدوية ترتدي عباءة سوداء، يتدلى من برقعها عند الأنف قطعة ذهبية كبيرة.. عيناها واسعتان في حركة دائبة لا تثبتان على شيء، كأنهما تبحثان عن شيء ما داخل غرفة المستوصف.. جلستْ على مقعد قريب وسألتني عن أم البزور، قلت لها أن زوجتي مشغولة في الداخل

مع ولدها سعيد، ولا أولاد عندي غيره.. قالت: "يقولون أنك دكتور تفتهم بالطب!"..

ابتسمتُ وأنا أرقب نظراتها.. كانت المرة الأولى التي تزورني فيها هذه المرأة في المستوصف.. جالت بنظراتها ثانية إلى جدران الغرفة، ثم استقرت بهما على سرير المرضى.. أغمضت عينيها لحظة ثم نظرت إلى وجهي مباشرة، وقالت بنبرة متسائلة:

- إنت تفتهم الطب!.

ابتسمتُ ثانية وقلت:

- إن شاء الله أقدر على علاجك.. استريحي واخبريني بماذا تشعرين؟..

تراكضت أنفاسها وهي تلهث، قالت:

- يقول المطوّع أنك لا تفتهم الطب، وانا جايه أتوكّد.

المطوّع، هذا العجوز، كثيراً ما التقيتُ به في المسجد، فهو الإمام في غياب الأمير.. والقاضي بأمر الله في حضوره.. رجل في السبعينيات من عمره، لحيته كثة بيضاء، يتوكأ على عصا، ويعرج على ساقه اليسرى، وقليلاً ما يرتدي عباءته فوق ثوبه.. متزوج وله خمسة أولاد، تركهم في المدينة في وظائفهم، وعاد ليعيش في البادية التي وُلد وتربى فيها، يملك قصوراً وثروات طائلة، "كما قال الأقرع"، يعالج المرضى بالطب العربي، ويطرد الشياطين من أرواحهم كما يقول.. دائم الجلوس في بيته الطيني الذي أقامه على طرف القرية، وهو المكان الذي يعالج فيه

مرضاه، بينما يستقبل ضيوفه في بيت الشعر الذي أقامه بالقرب منه.. كثيراً ما حدثني الأقرع عنه، وكثيراً ما رأيته.. لكن لم يخطر ببالي أني غريمه في مهنة الطب في هذه القرية.

أذكر أني سمعته مرة يتحدث عن رجل عجوز لا يستطيع المشي ولا الوقوف على قدميه، جاؤوا به أنجاله من أطراف البادية على بعير.. قال المطوّع أنه وبعد أن قرأ على العجوز آيات قرآنية، قام يمشي، وسار أكثر من مائة متر ذهاباً وإياباً أمام أولاده، وعندما عاد بَرَك في مكانه.. فضربه المطوّع بعصاه على ظهره، صرخ العجوز من شدة الألم.. فقال المطوّع بأن الجِنّي الذي يتلبّس العجوز هو الذي كان يصرخ، ورفض الخروج من جسده.. وأمر أولاده أن يعيدوه إلى ديرته، لأن الجني الذي يتلبّسه كافر ابن كافر، ولا قدرة له على الكفار.

أهل الديرة يؤمنون بالمطوّع، ويُصدّقون كل ما يقوله لهم دون مناقشة، بل ويخافونه أيضاً.

كثيراً ما سمعت عن حكايات الجن والجان من الأقرع، فهي منتشرة في طول الصحراء وعرضها، لم أكن أصدقها.. لهذا كنت أنظر إلى عيون الرجال والنساء وأراقبهم، والمطوّع يتحدث إليهم، وهم منجذبون نحوه فاغري أفواههم، شاخصين إلى حركات يديه وشفتيه، متحجّرين ومتسمّرين في مجالسهم.

وكما كنت أنظر إلى الرجال، كنت أنظر إلى المطوّع باستغراب أيضاً، لكنه كان يتجاهل وجودي بينهم.. لم يحدثني مرة واحدة، ولم نتصافح غير مرات معدودات منذ أن وصلت القرية.. لكنني لم أكن أعرف ما يخبئه في صدره تجاهي، كما لم أكن أعرف أنه يقول لأهل القرية أني لا أعرف الطب، وإنه الوحيد القادر على علاجهم، ويطلب منهم مراجعته في كل صغيرة أو كبيرة، هذا ما أكّدته لي "مستورة" ذلك المساء بعد أن أباحت لي باسمها، وتحّدثت عمّا يُقلقها من الأعماق.

منذ ثمانية أعوام تزوجت مستورة، لكنها لم تُنجب، مما دعا زوجها للزواج من أخرى أنجبت له ثلاثة أولاد.. ومنذ أكثر من خمسة أعوام والمطوّع يعالجها، ويؤكد لها أنها ستحبل، وتلد أميراً يحكم الصحراء حضَرها وبدوها.. وتُبدي مستورة دهشتها وتتساءل: "كل الحريم يلدْن بعد تسعة أشهر إلا أنا، يقول المطوّع أني حبلى في الشهر السادس ولا أرى أثراً لهذا الحبل!.. أنا ما أبغى أمير، أنا أبغى اوْليد أرضّعه من صدري، أنا زينه وما بي شيء، وأبغى يا دكتور أتوكّد من كلام المطوّع".

ألجمني كلامها عن النطق وهي تتحدث بعفوية وسذاجة متناهية وجهل مطبق.. واحترتُ فيما أقول لها.. أفهمتها أن المرأة تعرف نفسها إذا كانت حبلى، خاصة إذا انقطعت عنها العادة الشهرية، وبدأ الجنين يتحرك في بطنها بعد الشهر الرابع.. والمطوّع كلامه غير منطقي.. لكنها لم تقتنع بما قلت، واعتقدتْ أني أتعرّض

للمطوّع في دينه ومقدرته على العلاج.. فدافعتْ عنه وقالت: "إنه عالج احْريمات كثيرات وحبلْن وولدْن".

كانت مهمتي في القرية معالجة الجروح ولسعات العقارب والأفاعي، ولم يخطر ببالي أن أعالج النساء للحبل، وأعطي أدوية لم تكن موجودة بحوزتي أصلاً.. كما لم تكن مهمتي توليد الحوامل، لكني اضطررت قبل عدة أشهر توليد امرأة في بيتها بمساعدة نساء أخريات، ورغم خوفي وارتباكي، إلا أني نجحت في تلك المهمة.. وأعتقد أن هذا السبب هو الذي قاد هذه المرأة لزيارتي.. أخبرتها بأن الأطباء الكبار في المدينة يعالجون مثل هذه الحالات، وهم متخصصون بهذه الأمور، وباستطاعتي أن أحيلها إلى واحد منهم، ليرى حالتها ويعطيها الدواء المناسب.. امتعضتْ المرأة وأكدت لي بأني أستطيع علاجها والكشف عليها بحكم مهنتي، طالما استطعتُ توليد امرأة سابقاً وأنجبت ذكراً.

تردّدتُ في البداية، شعرتُ أن الصحراء قبر كبير واسع لا يرحم، واحترت فيما أقول لها.. فجأة رفعت البرقع عن وجهها ونظرت إليّ مباشرة.. امرأة فيها سحر الصحراء وندى الأغساق، وجه بدوي مرصّع بالوشم، محروق بأشعة شموس الهضاب الرملية وتراكم السنين، تغمره مسحة من الحزن والألم، الشفتان ناحلتان ينمان عن ابتسامة حزينة وانفراج بين الأسنان، الجبين واسع، والأنف قصير، الصدر مائل إلى السمرة، كشف عن جزء كبير من نهدين مخنوقين ومتكورين تحت ثوبها الأسود..

غابت الكلمات عن ذاكرتي، وأنا أحاول إخفاء نظراتي عن جمالها الصحراوي المعتق.. فجأة تهدّجت أنفاسها وتلاحقت.. بدت وكأنها تود أن تقول شيئاً لكنها لا تستطيع.. شعرتُ أن صدرها مكتظ بالآهات، مسدود بكلمات مخنوقة.. راح الصمت يغلّف المكان ويحجب الرؤية عن عيني بنوع من الغبش، جمالها كان ناعماً، رغم عواصف الانكسار التي بدت واضحة على ملامح وجهها.

تلاحقت أنفاسها.. أصوات وأصداء راحت تخرج من الفراغ والوحدة والصحراء والغرفة الخاوية.. انكمشت المرأة على نفسها، راحت كتلة النار الداخلية تتضاءل، لكنها لم تخمد تماماً.. أعادت البرقع إلى وجهها وهبّت واقفة تقول:

- علامك يا الدكتور، أنت مخبول!، ما شفت وجه حريمي قبل الحين. وقفزت عن مقعدها تلم عباءتها وتتجه نحو الباب..
- تعالي مرة ثانية، إن شاء الله أقدر على علاجك. قلت

قالت وهي تغادر المستوصف دون أن تلتفت إلى الخلف:

- لا ثانية ولا ثالثة، صحيح إنك مخبول، زي ما يقول عنك المطوّع.

***

بعد أكثر من شهر، وبعد عصر أحد الأيام أحسستُ بقهر الغربة والوحدة والفراغ وقلة العمل، رحتُ أتمشى بعيداً عن بيوت الشعر المتناثرة.. قبل مغيب الشمس شاهدتُ الرعاة يعودون بقطعان الأغنام، كان ثغاؤها يعلو وهي تقترب، وكأن الحياة دبّت في القرية من جديد بعد قيلولة الظهيرة.. الرائحة كانت مثيرة، والغبار يملأ الطريق الذي يتوسط القرية مع وقع أقدام الحيوانات.. كان كل قطيع يتجه إلى زريبته، وكأنه يحفظ مكانه عن ظهر قلب.. النساء يستقبلن أغنامهن بفرح عارم، ويصرخن على الرعاة والفتيات اللاتي يتقدمن رأس القطيع.

الأقرع كان يقف قرب ماتور الكهرباء، قال بفرح وهو يلوّح بيده بأن الديرة ستضاء بالكهرباء هذه الليلة بعد أن أصلح العطل.

الأقرع هو دينامو القرية، ورقيبها، مثل نسمة الهواء يتحرك بين بيوتها، يعرف كل شيء في القرية، يعرف أيضاً متى ينام الرجل مع زوجته.. سألته عن رجال القرية الذين اختفوا فجأة ولم أر منهم أحداً، فقال إنهم ذهبوا ليقبضوا رواتبهم ويعودون بعد أسبوع.

في القرية لم يبق غير عدد قليل من الرجال والمطوّع، مع الأطفال والنساء والخدم الذين يُطلق عليهم اسم "العبيد".. تذكرت المطوّع وما قالته عنه مستورة، فليس من صالحي أن أعادي أحداً

أو يعاديني أي شخص، خاصة إذا كان المطوّع.. وأنا الغريب "الأجنبي"، كما يطلقون الاسم على كل وافد إلى ديرتهم.

قادتني قدماي إلى بيت المطوّع، لم يكن في بيت الشعر.. كانت النار تشتعل والقهوة تغلي.. سكبتُ فنجاناً من القهوة واحتسيته على مهل.. اقتربتُ من بيته الطيني، كان الباب مفتوحاً والنور الخافت يضيء الغرفة..

على أرضية الغرفة فُرشت سجادة عجمية نظيفة، وعليها فراش زهري اللون محاذي للجدران، وسائد من حرير ملون ومطرزة بخيوط ذهبية.. فوق النوافذ أسدلت ستائر حريرية بلون أبيض.. وفي ركن جانبي كان هناك حوالي عشرة أكياس معبأة وموضوعة فوق بعضها البعض، خمّنتُ أنها قمح أو شعير.

السراج ينبض ويضيء.. ناديتُ على المطوّع، لم يجبني أحد.. عدت أدراجي إلى الخارج.. قبل أن أخطو عتبة الباب تداعى إلى مسامعي صوت في الغرفة المجاورة.. أرهفتُ السمع، راودتني أفكار شيطانية ودفعتني لأسترق السمع من جديد.. كان هناك صوت نسائي مخنوق يتأوه، استهوتني المغامرة، شعرتُ أني مدفوع بحب الاستطلاع والنظر من نافذة خلفية صغيرة.. كان هناك امرأة مع المطوّع يجلسان تحت الضوء الخافت في ركن مظلم، لا علاقة لهما بالعالم الخارجي.. أحسستُ بخفقان قلبي، شعرتُ أنه سيشق صدري ويقفز خارج ضلوعي.. تمنيتُ أن

أترك ساقيّ للريح وأهرب بعيداً، لكن شيطان نفسي غلبني ورحت أرقبهما عن كثب..

كانت المرأة ممدّدة على سجادة في شبه غيبوبة، مثل غزالة مطروحة على الرمل أثر إصابتها بسهم.. الستارة ثقيلة، والثواني ثقيلة.. تحركت في مكانها مثل قطة جريحة وتبرّمت، مسلوبة الإرادة كانت وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة.. اقترب منها، طوّقها بذراعيه.. فجأة هبّت مذعورة، وحين وقفت لمحتُ وجهها وعرفت أنها مستورة.. لطمها بكفه على وجهها ثم دفعها لتجلس أمامه، حتى يتمكن من إخراج الشيطان الذي يتلبّسها ويمنعها من الحبل، كما قال.. وكما تستسلم الفريسة لصيادها، استسلمت مستورة لكلمات المطوّع وحركات يديه، وجلست يُمسّد صدرها بيديه وهي تتأوه وترتجف.

رجل طاعن في السن يشتعل بالرغبة والشهوة، وامرأة مجروحة يتفصّد منها العرق والألم وحب الأمومة.. اختفى صوته، ولم يعد يُسمع إلا أنات مخنوقة، حشرجات وصوت امرأة تبكي وتنتحب، وسرعان ما قفزتْ نحو الباب فتحته وتلاشت في الظلام.

في أعماقي شعرتُ أني ارتكبتُ جريمة، لكن الصمت ألجمني، لا كلام ينفع في الصحراء، ولا صراخ.. عدتُ إلى البيت وانزويت في غرفتي.. قالت زوجتي بأنها قلقت أثناء غيابي،

وخافت كونها وحيدة في البيت.. لكني كنت منذوراً للصمت تلك الليلة، ولم أستطع البوح بما يجول في نفسي.. الكلمات هنا تعني الجَلْد والموت في الصحراء، إقامة الحد حسب الشريعة الإسلامية.. سألتني نعمة عما أصابني، خبأتُ ما يخالجني من قهر وفجيعة، تظاهرت بالتعب، واستلقيت على الفراش.

استلقت نعمة جانبي، وأخذت تحدثني عن حكايات الجن والشياطين في البيوت الصحراوية، كما سمعتْ من نساء الديرة، أشعرتني أنها مذعورة، وهي تردد ما يعتقده أهل القرية من أن الرجال يسخطهم الله ويتحوّلون إلى حيوانات.. طمأنتها بأن القرية مليئة بالخرافات بسبب الجهل، ولا يحدث شيء مما يقولونه.

الكهرباء لم تنر القرية تلك الليلة كما وعد الأقرع، يبدو أنه لم يستطع إصلاح ماتور الكهرباء.. التصقت نعمة بي وتظاهرت بالنوم.. صدرها يعلو ويهبط بفعل أنفاسها المتلاحقة، ضممتها بين ذراعيّ، وأغمضتُ عينيّ أمام النور الخافت المنبعث من مصباح الكيروسين.. ورحت في الظلام أجتر مشاهد الكابوس الذي أخذ يطاردني منذ أن تركتُ بيت المطوّع.

عجوز في خريف العمر والأزمنة، وامرأة في عقدها الثالث من العمر يلتقيان.. كل يبحث عن ضالته، امرأة تبحث عن حلم الأمومة بأية طريقة، وهو مطوّع الصحراء، الذي يبحث عن فريسة يسد بها خواء شهوته.. رفض عقلي تصديق ما رأيت،

وفي قرارة نفسي تساءلتُ إذا كان ما شاهدته حقيقة أم وهم وخيال!.. ورحت أتساءل أيضاً، ما الذي دفع المطوّع لترك أنجاله وأحفاده وقصوره في المدينة، وأتى به إلى البادية ليعيش في الصحراء!.. أيعقل أن يكون من أجلها!.. أغمضتُ عينيّ وتجاهلت الأجوبة، وحدثت نفسي بأن للصحراء أسرارها، رجالها وعقاربها، نساؤها وأفاعيها، وعبثاً حاولتُ أن أنام في دوامة ليس لها قرار.

هاجمتني أسراب من البعوض، انقضّت تلدغ جسدي وذراعيّ.. حرارة الجو ورطوبته الخانقة عرّقتني.. قمت وأطفأت المصباح وفتحت النافذة الخلفية لأفسح مجالاً لتيار الهواء يعبر الغرفة في هذه الليلة القائضة.. انقضى ثلثا الليل وأنا أحاول العثور على الخيط الذي يربطني في الصحراء وهذه الديرة، وجدتُ نفسي غارقاً حتى النخاع في مستورة والمطوّع، أربكتني الفكرة وهاجمتني الوساوس من جديد، قلق ساور أطرافي واشتعل كالحريق.. فجأة هبّت زوجتي من نومها وركضت نحو الباب مذعورة تصرخ: "أبو خالد انقلب حمار، أبو خالد انقلب حمار".

أنقذتني نعمة من كابوس أفكاري إلى كابوس ألعن، قفزتُ خلفها وأوقفتها عند الباب، كانت ترتجف، حاولت أن أهدئ من روعها، قلت لها إنها كانت تحلم.. لم تصدق، التصقت بي وكأنها تحاول الولوج تحت ثوبي وقالت: "أنا لا أحلم انظر إلى الشباك".

تجمدت عروقي أنا الآخر وأنا أرقب المشهد، قشعريرة سرت في كل أنحاء جسدي، شعرتُ أني لا أقوى على الوقوف، انتابني ذعر شديد وعتمة الليل زادت قشعريرة جسدي.

على ضوء القمر الخافت خارج الغرفة، استطعتُ أن أرى بوضوح حيواناً بأذنين طويلتين شامختين إلى الأعلى يمد رأسه عبر النافذة، وينظر باتجاهنا بلا حركة.. ونعمة ترتجف وتلتصق بي، وكأنها تتكمش داخل رحم، وأنا أرتجف معها.

بعد لحظة عجز وصمت لا أدري كم امتدت، أخذت أتلو ما تيسر لي من آيات قرآنية، عاد الهدوء إلى نفسي، ومع ذلك ظل الحيوان يطل برأسه وأذنيه الطويلتين من النافذة بلا حراك.

تصنّعتُ الشجاعة وصرخت: "مَن هناك"؟، شعرتُ أن الصوت لا يشبه صوتي.. حرّك الحيوان أذنيه الطويلتين، فتحتُ الباب وخرجت من الغرفة ونعمة تتشبث بثيابي.. في الخارج بدا ضوء القمر ساطعاً وأصوات الصراصير تقلق النيام.. قفز قط ولحق بشيء يتحرك داخل الحوش.. تناولتُ عصاً بشكل غريزي للدفاع عن نفسي، ودرتُ خلف البيت باتجاه النافذة المفتوحة، ونعمة ترافقني، اختنق صوتي فجأة وأنا أتصنّع الجرأة أمامها عاجزاً عن التصرف.. خلف البيت شاهدتُ حمارين متسمّرين قرب الجدار ومتباعدين، بينما وقف حمار ثالث قرب النافذة مُسنداً رأسه عليها.. نهرته فتحرك وابتعد.. تنحنح جارنا أبو خالد الذي

يقيم قرب المستوصف وقال: "مَن هناك!"، وشاهدته يقترب حاملاً في يده إبريق الوضوء البلاستيكي.. سرت قشعريرة اطمئنان في جسدي، وشعرت براحة نفسية أعادت إلى قلبي النبض والحياة.. نعمة أخذت تنظر إلى أبي خالد غير مصدّقة، كانت مقتنعة في قرارة نفسها أنه تحوّل إلى حمار.. أخفيتُ ما في نفسي وقلت له أن الحمير أزعجتنا خلف البيت، فقال بغير اكتراث بأنه سيغيّر مكانها في الليلة القادمة.

أعلن الفجر عن بزوغه، صباحات الصحراء عذبة رغم زمهريرها، ولجتُ ونعمة إلى داخل الغرفة، أضأتُ مصباح الكيروسين ووضعته في المكان المخصص له، ثم تربّعت على البساط وأنا أستعيد شجاعتي أمامها.. على ضوء المصباح استطعت أن أرى شعرها المشعّث وثوبها الأسود الذي ارتدته بالمقلوب على عجله من أمرها أثر الخوف.. نعمة لم تصدق ما حدث، وبقيت أكثر من ساعة تستعيد كابوسها الذي لم يفارقها حتى بعد سنوات طويلة.

ذلك الصباح لم أصلّ الفجر، كان الفجر باهتاً وغامضاً ومخيفاً مثل الصحراء في الليل.. ونعمة ترتجف وتلتصق بي خائفة مذعورة، ولم تفارقني إلا بعد أن سطعت الشمس، ورأتْ بعينيها أبا خالد حياً يُرزق والحمير الثلاثة.

***

رحلة قنيص

كنت أدوّن مذكراتي وأسجل مشاهداتي بين فترة وأخرى بلا سبب، ربما لتقضية وقت فراغي بعد أن وجدتُ نفسي ضائعاً في غربتي، الأمر الذي استعصى على تفكيري، ودفعني لتمضية إجازاتي السنوية في الصحراء، أو ربما لأني كنت أشاهد أشياء غريبة غير مألوفة لديّ، ولم أتخيّل في يوم ما أني سأعيشها.. قطع حبل أفكاري واسترسالي طرْق على الباب الخارجي.. كان الصباح حاراً وجافاً، وكان الأقرع يقف مع بدوي آخر قرب الباب، قال الرجل بلا مقدمات:

- أسألك بالله يا الدكتور، أم البزور زارتك الليلة؟.

أبديت استغرابي لسؤاله، وقلت بأن باب بيتي لم يطرقه أحد منذ ثلاثة أيام.. زمّ الرجل شفتيه ومسح على وجهه بيده ثم أدار وجهه جانباً وقال: "الخايسة، وين لَفَت!". ومشى في طريقه.

- هذا رِيّال مخبول في راسه، من البارحة يبحث عن حرمته.

قال الأقرع بعد أن غاب الرجل عن أعيننا، ثم خفض صوته وكأنه يحدث نفسه وأضاف: "تكون نايمه عند إحدى الجارات، وهو نايم على ويهه".. وأضاف على سماعي: "بعض النساء يهجرن أزواجهن وبيوتهن لعدة أيام، دون أن يستطيع الزوج أن يتهم زوجته بشرفها، لأنه لا يستطيع أن يُثبت عليها الفاحشة حسب الشريعة الإسلامية".. ثم استدرك قائلاً:

- ايش علينا منّه، الأمير بدر يبغاك في الحال، يبغى يقوم برحلة قنيص ويبغاك ترافقه.

***

رجال سبعة كانوا يقفون قرب المضافة بانتظار الأمير، ما أن خرج من داخل البيت حتى استقلوا سياراتهم اللاندروفر الصحراوية الحديثة الصنع، ذات الدفع الرباعي، بينما طلب مني الأمير بدر الصعود بجانبه في الجيب المكشوف.

على مقدمة الجيب كان هناك "صقر" يمتشق عمود نحاسي صغير وقد حُجبت عيناه عن الرؤية والنور، كما كُمّم منقاره بقطعة من الجلد.. وما أن هدر محرك السيارة حتى قفز كلب الصيد إلى مؤخرة الجيب، ووقف متحفزاً يراقب الطريق.

في البادية يطلقون على الصقر "طيراً"، ثمنه يُقدّر بالذهب أحياناً، يقتنوه الأمراء لصيد الحباري والحمام البري والأرانب، ويتباهون متفاخرين بطيورهم.. يطعمونها اللحم، ثم يجوّعونها قبل رحلة الصيد لتأكل من لحوم الفرائس التي تصطادها.. ولكل طير خادم يقوم على تربيته وخدمته وتعليمه، وتأهيله للصيد.

انطلق الأمير بدر بسيارته، يتبعه الأمير جفران فالأمير زايد، ثم بقية الرجال.. فمن العيب أن يسبق الصغير الكبير أو يسير أمامه.. بينما وقفت النساء بعباءتهن السود ينظرن من خلال فتحات براقعهن بفخر إلى الرجال، وهم يغادرون الديرة.

في الصحراء افترق الرجال وتوازت السيارات في سيرها محيطين بالأمير من اليمين والشمال، فاسحين لسيارته المجال أن تتقدم مسافة قصيرة عن سياراتهم.. بعد مسيرة ساعات عدة والغبار يلفنا ويخنق أنفاسنا، وصلنا منطقة مليئة بالشجيرات الصحراوية المتناثرة.. توقف الأمير وطلب مني قيادة الجيب، بينما لبس بيده كفاً طويلاً من الجلد، وراح يفك الطير من مقدمة الجيب ويحمله على يده.. ثم أخذ يجوب الصحراء بمنظار عسكري وضعه على عينيه.. بعد لحظات أزال الحجاب الذي يغطي عيني الطائر وأطلقه نحو الفضاء.. قفز الطائر وحلّق عالياً في الجو، والأمير يلاحقه بمنظاره ويوجّه خط سيري لمتابعته.. فجأة دار الطير دورة كاملة وهوى باتجاه الرمال مباشرة بشكل عامودي، فطلب الأمير أن أزيد السرعة، وخلال ثوان معدودة قفز كلب الصيد يسابق الجيب باتجاه الطير.. كان الصقر يقف متحفزاً وبين مخالبه أرنباً يتلوى ويحاول الإفلات، بينما قعى كلب الصيد على مقربة منه يرقب المشهد.. وقبل أن تقف السيارة تماماً قفز الأمير نحو الطائر، سحب الأرنب من بين مخالبه، وقطع قطعة من لحم الأرنب بخنجر استله من حزامه وأطعمها له، ثم ربت على جناحيه وملّس على رأسه براحة يده، وأطلقه ثانية إلى الفضاء لمطاردة حمامة برية شاهدها عن بُعد في عنان السماء.

الأمير جفران كان يحمل بيده بندقية صيد، يقولون عنها "بندقه"، وكان كلما أطلق النار على أرنب أو ثعلب أرخى العنان

لكلاب الصيد لتعود قابضة على الفريسة بين أنيابها.. وكذلك كان يفعل بقية الرجال.

عند المساء تجمع الرجال ثانية في بقعة رملية منبسطة، وأقاموا صلاة المغرب.. بعد الصلاة قام الأقرع الذي كان يقود سيارة خزان المياه بجمع عدد من شجيرات الصحراء الشوكية، وأشعل فيها النيران، ثم ألقى ببعض ما اصطادوه في النار.

رائحة الشواء كانت مثيرة، لم ينتظر الرجال الطعام حتى ينضج، فما أن احترق شعر الأرانب وتفحّمت جلودها حتى التقطها الرجال من وسط النيران، وأخذوا يمزقونها بأيديهم، ويلتهمون لحمها الشهي متلهفين للوصول إلى أحشائها، باعتبارها أفضل من اللحم، وهي التي تفتح الشهية لما فيها من أحماض، كما قالوا.. وكنت أشاركهم الطعام وأشرب مما يشربون.

***

بعد العشاء انطلق الجميع لصيد الأرانب والجرابيع ثانية.. "الجرابيع جمع جربوع، يشبه الفأر بحجمه وشكله، إلا أن مؤخرة ذيل الجربوع تختلف عن ذيل الفأر لاحتوائها على كتلة كثيفة من الشعر".. على أنوار السيارات الكاشفة كنا نطارد الجرابيع ونصطادها بعد ملاحقتها وضربها بعصيّ طويلة، وهي تلوذ بالفرار بين النتش الصحراوي والنباتات الصحراوية القصيرة.

أما الأرانب فما أن يقع ضوء السيارة على أحدها حتى يتسمّر في مكانه وتُشل حركته، يقف متحجراً بأنفاس لاهثة ومتلاحقة، وعينيه الحمراوين تلمعان في الأضواء باتجاه النور، وعندما يحاول الهرب ثانية، يركض باتجاه النور دون أن ينحرف يميناً أو يساراً، مما يسهل اصطياده في كلا الحالتين عندما يقفز عليه أحد الرجال، يلتقطه من أذنيه الطويلتين، أو يطارده كلب الصيد، فيمسكه بأنيابه من رقبته ثم يرفعه عالياً بفمه، يهزه ويضربه بكل قوته في الأرض، يكسر عموده الفقري ويشل حركته.

بعد منتصف الليل تجمع الرجال ثانية قرب سيارة الأمير، وراحوا يستعدون للنوم والراحة، يفترشون الرمال ويلتحفون السماء والنجوم.

صحراء هادئة واسعة، ومترامية الأطراف، وفي نفس الوقت فارغة ومخيفة.. القمر يتهادى في السماء بنوره الفسفوري، يبدد الظلام ويزرع الأمل في النفوس.. السماء صافية والنجوم تتلألأ من بعيد.. هبّت نسمة هواء باردة وسرت قشعريرة في جسدي، لملمتُ جسدي وتكورت أدفئ أطرافي.. البرد في الصحراء يلسع ويقرص.. تدثر الرجال بعباءاتهم.. جلستُ ورحت أمتّع ناظري بمنظر الصحراء والنجوم في الليل.. هدوء يخيم على الكون، يدفع المرء إلى التفكير بخالق السماء والأرض والخلق دفعاً.. كل شيء هنا يدل على قدرة الخالق.

زمهرير الصحراء لسع الأقرع أيضاً.. قام وجمع بعض الشجيرات اليابسة وأشعل فيها النار، جلستُ وإياه قرب النار نتسامر معاً ونتدفأ.. سألته كيف يعرف البدوي طريقه في الصحراء، وكيف يعرف الشرق من الغرب في الليل البهيم!.. قال بأن البدوي يعرف كل الاتجاهات بواسطة مواقع النجوم، وعلى الأرض يعرفها من خلال التلال والهضاب الرملية، ومن النباتات التي تعيش في الصحراء، حيث ترتفع كومة الرمل من الجهة الغربية للنبات بفعل هبوب الرياح دائماً، ثم تنخفض وتهوي مباشرة بشكل حفرة صغيرة في الجهة الشرقية.. والأشجار الكبيرة دائماً تكون أغصانها مائلة باتجاه الشرق بفعل الرياح الغربية.. كان يتحدث كما لو كان خبيراً في أمور الصحراء، وكنت سارحاً بفراسة البدوي وقدرته على الحياة، والتكيّف مع صحرائه الممتدة اللامتناهية.

بعد صلاة الفجر شاهد الأقرع قطيعاً من الغزلان.. هبّ الرجال دفعة واحدة وطاردوها بسياراتهم وبنادقهم وكلابهم.. اصطادوا غزالين ذبحوهما على الفور لوجبة الإفطار، التي احتوت على أحشاء الغزالين بما فيها من حمضيات، بينما صاد الأمير غزالاً رضيعاً بعد أن أصابه في ساقه، فطلب مني أن أضمّد جراحه قائلاً: "هذا الغزيّل من نصيب الأميرة المزيونة".

خمّن الأمير أننا نبعد عن القرية مسافة نهار كامل، وهذا يعني أننا لن نصلها قبل حلول الليل، ومع ذلك راحوا يشقون طريق

عودتهم تحت وهج الشمس وحرارة الصحراء الجهنمية.. غير أن السيارات المكيّفة غيّرت كل شيء، ولم نشعر بحرارة الجو التي تجاوزت الخمسين درجة مئوية.

في طريق عودتنا والأمير يقود سيارته، حدّثني عن نفسه وعن أزواجه وأولاده وأحلامه.. قال إنه يمسك زمام وقيادة حرس الحدود، وإنه يملك قصوراً في العاصمة، لكنه يُفضّل حياة البادية.. وعندما سألته عن انطباعه عند لقائنا الأول، قال إنه يعرف الكثير عن المغتربين والوافدين الأجانب، ويعرف أنهم يشربون المنكر، لكنه أكّد لي أنه اطمأن لي لأني لم أكن مثلهم، وأنني أحافظ على الصلاة والدين.

أضاف الأمير أنه يُنتدب في بعض الأوقات للقيام في مهام رسمية خارج البلاد مع أمراء العاصمة، مثل والده الأمير مشعل الذي يرافقهم دائماً.. وعندما تحدث عن زوجاته قال بأن الله خلق النساء ناقصات عقل ودين، وكان من الأيسر لهن أن يبحثن عن السعادة مع الرجل.. "السعادة لازم تكون هدف الحرمة الأول والتالي في الحياة، لكنها تهدر وقتها بالبحث عن الجدران لتضرب رأسها فيها".

تناول مطَرَة الماء، شرب وبلّل لحيته السوداء التي يعتني بصباغتها جيداً، وقال: "الماء بارد، تبغى تشرب!"، تناولت المطرة من يده وشربت، فأضاف مبتسماً "تكون عينك على واحدة

من بنات الديرة!"، ضحكت معه وأخبرته أني قانع بزوجتي، فقال:

- علامك يا ريّال، الله حلّل لك مثنى وثلاث ورباع، وأنت تحرّمهن على نفسك!..

صمت لحظة ثم أضاف: "حين يعرس الريّال من حرمة ثانية، تشعر الحرمة الأولى أنها مقيّدة بضفيرتها إلى شجرة، فلو كان عند الحريم عقول، لاتّفقن على سعادة الريّال، ورحن يجذبن الشجرة باتجاه واحد، لكن تراهن يجذبن الزوج باتجاه مغاير للثانية، ويختلفن في الاتجاه الصحيح لغبائهن وتنافرهن، كيف الله بدّه يوفقهن وكل حرمة تضمر لغيرها الكره والحقد.. لهذا السبب يظل الريّال صامد كالشجرة، في حين تبدأ الحرمة باللهاث والاستكانة والركض خلف البزور".

كان الأمير يشعر بزهو وهو يتحدث، الصحراء تتوهّج، وظل السيارة تحت عجلاتها مباشرة، الساعة تقترب من الواحدة ظهراً، والسراب يتراءى لنا من بعيد.. شاهدتُ التلال مقلوبة، وسفينة الصحراء تراءت لي وكأنها تتهادى فوق لجة من الماء.. كل شيء شاهدته مقلوباً، مثل من يقف على حافة بركة من الماء.. قطع الأمير حبل أفكاري وقال: "العوذة من الحريم، حِنّا نهرب منهن، وإنت سلّمك الله تلاحقني بيهن".

***

توقف الرجال وسط منطقة منبسطة لا تلّة فيها ولا منخفض رملي، ترجّلوا من سياراتهم وراحوا يبحثون عن الضباء، "الضباء جمع ضبّ، والضّب حيوان صحراوي زاحف، يشبه التمساح بشكله لكنه أصغر حجماً، يتحمل حرارة الصحراء الشديدة ولا يشرب الماء أبداً، لحمه قاس ولا ينضج بسهولة، لكنه شهي الطعم والمذاق كما يقول أهل البادية".. قاد الأقرع صهريج الماء إلى باب جحر صغير قال إن بداخله ضبّ، أفرغ بداخله الماء، فجأة خرج الضب خارج جحره هرباً من الماء، ألقي عليه أحدهم كيساً من الخيش، وقفز فوقه ليمنعه من الحركة.. كمّم فمه ذو الأسنان الحادة القاطعة، وقيده بمساعدة اثنين من رفاقه، ثم تعاونوا على حمله وألقوه في الصندوق الخلفي لسيارة الهايلكس ذات الدفع الرباعي.

كانت آثار الأفاعي واضحة على رمال الصحراء، من بينها كان هناك أفعى قصيرة لا يزيد طولها عن عشرين سنتمتر تزحف بشكل عرضي، مخلّفة آثاراً في الرمال بشكل لولبي، قال عنها الأقرع بأن "هذه الأفعى لسْعتها والقبر"، أي أنها أخطر أنواع الأفاعي، ومن تقرصه يموت على الفور.

بعد العصر شاهدنا بعض الأبعرة بعيداً في الصحراء، قرب بيت من الشعر.. اتجه الرجال نحوها مباشرة ليشربوا حليب النوق، كما قالوا، بينما اتجه الأمير صوب بيت الشعر.. فجأة ظهرت امرأة بدوية أمام البيت وبيدها بندقية صيد، كانت سافرة الوجه، شعرها فاحم اللون غزيراً ومجعداً.. وقف الأمير وأخذ

يتحدث معها، وسمعتها تُرحّب به وبرجاله، فأمرهم بالدخول إلى الشق، ويقصد "بيت الشعر".

بيت الشعر كان مصنوعاً من شعر الماعز ووبر الجمال، ضربته الشمس وبلّلته أمطار الصحراء النادرة، فضرب لونه إلى رمادي مغبر قاتم، والوبر ما زال منتفضاً ومستفزاً من الخارج.. على مقربة من البيت كانت النار تشتعل وأباريق القهوة تغلي فوق الموقد.. في الداخل كانت أبسطة صوف منسوجة بأيدي النساء البدويات، مبسوطة على رمل مستو وممهّد من بقايا الصحراء.. جلس الأمير في واجهة البيت، بينما جلس شقيقاه وبقية الرجال على جانبيه.. قامت المرأة وصبّت القهوة للأمير ورجاله وهي ترحب بهم، ثم خرجت واختفت خلف تل رملي قريب، عادت بعدها ترافق ثلاثة رجال من البدو يجرون كبشين كبيرين.. وقبل أن يُسلّموا على الأمير سحب أحدهم خنجراً من حزامه الذي يلفه على وسطه، وألقى بالكبش على جنبه وذبحه، بينما تقدم الآخران يرحبان بالأمير ورجاله.. وقف الأمير وطلب منهما عدم ذبح الكبش الثاني، وقال إنه على عجلة من أمره، وأضاف: "تكفي القهوة واللبن، ولا حاجة للطعام"، لكن الرجلين أصرا على ذبحه.

ظهرت امرأة ثانية ملفّعة بعباءة سوداء تقود نوقاً باتجاهنا.. كانت النوق تزمزم وتخور، ومن خلفها ظهرت امرأتان يغمغمن غمغمات غير واضحة من وراء براقع قصيرة، مثبّته بمخازم ذهبية، محزّزة على الأنف ومربوطة بطرحة الرأس، أخذن على

عجل يحلبن النوق ويقدمن الحليب للأمير ورجاله، بينما قدّم رجل آخر التمر الجاف والقهوة.

كانت الذبائح قد سُلخت ووضعت في قدور بلا تقطيع، وعُلّقت على النار، مما اضطر الأمير للبقاء.. وحين قُدّم الطعام جلس الرجال القرفصاء على الرمل العاري يأكلون اللحم والأرز، ثم شربوا القهوة.. وقبل أن نغادر المكان اندفع الرجال يهرولون باتجاه بعيراً يبول، ملأوا أيديهم من رذاذ بوله ومسحوا بما علق بأيديهم على لحاهم، وعلى شعر رؤوسهم المشعّث والمغطى بالغُتر البيضاء بلا عقلة وهم في غاية السعادة.. وهمس الأقرع بأذني بأنهم يفضّلونه على العطور، فهو يطيل اللحى ويحوّل لونها من الأشيب إلى اللون الأسود.

بعد منتصف الليل، لاحت لنا أنوار القرية كما يراعات في ليل معتم ومخيف.. كانت الرحلة ممتعة والصيد وافراً، لكن التعب ضيّع فرحتي وتركني في إرهاق شديد.

على مدخل القرية وقف الرجال يُرحبّون بعودة الأمراء من رحلة القنيص سالمين.. بينما اتجهت سيارة الأمير بدر نحو بيت الأميرة المزيونة وتوقفت، ترجل الأمير من السيارة يحمل الغزيّل بين ذراعيه، وتقدم من والدته، سلّم عليها، قبّل جبينها وقال: "هذا لعيونك يا الأميرة".. وناولها الغزال، ثم انتحى جانباً فاسحاً المجال لأخويه للسلام عليها، وهي تقبّلهم بفخر واعتزاز.

الأميرة المزيونة، التي طوّقتني بعطفها منذ وصولي القرية.. امرأة أعطتها السنون الشيء الكثير، قوة المراس، السداد في الرأي والثبات في الكلمة، "كما قال الأقرع".. هي أم الأمراء والأميرات.. زوجة الأمير مشعل الهارب دوماً بأحلامه من بؤس الصحراء إلى العواصم الأوروبية في مهمات عمل رسمية.. هي أميرة الصحراء وأخت الرجال، وهي الأم الرؤوم والزوجة المخلصة لزوجها على مدى فترات غيابه، مطيعة لأوامره، حازمة في أمورها أثناء غيابه، هيبتها في شخصيتها القوية.. أما مع وجود أميرها، "أضاف الأقرع"، فهي المرأة الوديعة الهاربة من شيخوختها إلى شبابها بين أحضانه، حتى يشعر بدفء جسدها وهي تتحدث وكأنها ابنة العشرين.. جمالها في ابتسامتها وصراحتها.. وحين تزيل البرقع عن وجهها يظهر بوضوح ذلك الجمال المعتّق والمخبأ تحت قطعة القماش السوداء.

قبّلت الأميرة المزيونة الغزال الرضيع في فمه واحتضنته مثل ولدها الأمير بفرح عارم، ثم ناولته للأميرة البدور.

***

قبل الفجر وصلتُ البيت، فوجئت بزوجتي تنتظر عودتي، قالت قبل أن أدلف الغرفة بأن الممرضة الجديدة "رحمة" وصلت نهار البارحة، ولا زالتا ساهرتين، وطلبت مني التعرف عليها.. كانت رحمة ترتدي فستاناً أحمر بلا عباءة، وقد أسدلت شعرها الأسود الفاحم على كتفيها.. صافحتها وجلست، ومن خلال لهجتها

عرفتُ أنها مصرية الجنسية.. قالت إن وزارة الصحة نقلتها من المدينة إلى هذه القرية لمساعدتي في العمل، وأضافت إنها لا تحب العمل في القرى لكنها مُجبرة، وأبدت امتعاضاً من نقلها.

قالت أيضاً إنها تعرف عادات البدو وتقاليدهم، وستحاول أن تُكيّف نفسها معهم حتى تعود إلى عملها السابق في المدينة.. بعد الفجر نامت مع زوجتي في غرفة النوم، بينما نمت أنا في الغرفة المجاورة.. بعد الظهيرة أخذتها للمستوصف وأفردتُ لها غرفة بداخله، ثم رافقتها إلى الأميرة المزيونة للتعرف عليها.

رحمة "الممرضة الجديدة"، متوسطة الطول نحيفة الجسم، وجهها حنطي اللون مائل إلى السمرة، وشفتاها ناعمتان.. قامت الأميرة بإهدائها عباءة، وطلبت منها أن تستر وجهها أثناء تنقلها في الديرة، وفي طريقي لإعادتها إلى المستوصف، توقفتُ عند الرجال الذين كانوا يتجمعون قرب المضافة، بينما تابعت رحمة طريقها إلى المستوصف.. كان الرجال يحاولون تقييد الضبّ من يديه ورجليه بعد أن كموا فمه وعينيه، وقام أحدهم بالضغط على ذيله ليشل حركته القوية.. بعد أن أحكموا سيطرتهم عليه، استل أحدهم خنجره وغرزه في بطن الضب، ثم قام بذبحه، وألقوا به وسط شعلة النار المتوقدة.. قفز الضّب عالياً عدة مرات وتدحرج يميناً وشمالاً وسط الجمر الملتهب، والرجال يعيدونه بعصيهم إلى وسط النيران.. لكن الضب لم يستسلم ولم تخمد حركته إلا بعد مرور أكثر من نصف ساعة تقريباً.

فاحت رائحة الشواء وتسرّبت إلى الجو نتنة متعفنة.. وحين قال أحد الرجال إنه نضج، كان قد مر من الوقت أكثر من ثلاث ساعات.. وعندما أخرجوا الضّب من الجمر وقطّعوه، كان لحمه الأبيض من الداخل لا زال يتحرك ويرتعش بين أيديهم، وهم يلتهمونه بشهية نادرة، ويقدمون لي قطعاً من لحمه لأشاركهم طعامهم.

***

أبو راجح

مضى على افتتاح مدرستي الذكور والإناث قرابة ستة أشهر بعد العام الثاني، وخلال تلك الفترة كنتُ حلقة الوصل بين المدرسين والمدرسات وبين رجال القرية وأبنائها ونسائها، مما سهل التعارف والتقارب بينهم.. ومع أن المدرسين تعوّدوا حياة البداوة والصحراء، إلا أنهم كانوا يتذمرون من الغربة ومن الوضع الذي ألوا إليه في سبيل لقمة العيش، ومع ذلك كانوا يشاركون رجال القرية في سهراتهم الليلية، ويحاولون التأقلم مع حياة الصحراء..

في المجلس الرملي "المضافة المكشوفة" قرب المسجد، كان الأمير جفران فارس الديرة الوحيد تلك الأيام، يتربع على طراحة صغيرة، يجلس المطوّع بجانبه من الجهة اليمنى، مادأً ساقه إلى الأمام وبجانبها عصاه التي بدت ممددة مثل حية تسعى.. أما الجهة اليسرى فقد جلس أبو راجح والد المعلمة جميلة مع والد المعلمة مريم يتحدثان مع الأمير.. بينما جلس بقية الرجال على الرمل في حلقة شبه دائرية، والأقرع يصب لهم القهوة السادة..

وصلتُ مع الأستاذين شريف وعبد الجليل متأخرين تلك الليلة، رحّب بنا الأمير ورجاله، وجلسنا في مقابلة الأمير نكمل الدائرة التي صنعها الرجال بجلستهم.

الساعة تقترب من الثامنة مساء، ومصباح الكهرباء على العمود الخشبي القريب من المجلس بنوره البنفسجي الخافت، ينير جزءاً من المجلس، الرجال يترقبون طلوع القمر بفارغ الصبر، وينتظرون بشوق عارم ضوءه الذي يضيف للسهرة نكهة مخملية اللون في الصحراء.

كان الرجال يتحدثون عن بطولاتهم ومغامراتهم في الصيد والقنيص في الصحراء التي قهروها ولم تقهرهم.. والمطوّع يحكي لهم حكاياته عن الجن والشياطين التي تقيم في الزوايا المظلمة من البيوت الطينية، وفي الجحور وسط الصحراء.. يستفتيه أحد الرجال عن صيد وأكل الطيور التي تملأ ديرتهم في موسم الربيع، وتشبه الصقور لكنها بحجم أصغر، ويطلقون عليها "صقير".. كما يستفتيه آخر عن أكل الثعابين!.. فيقول المطوّع: "أكْل هذه الطيور حرام، إلا إذا زاد عددها عن خمسة في سرب واحد، صيدها وأكلها جائز وحلال.. والأفاعي كذلك، تُشوى وتُؤكل بعد أن يُقطع رأسها ويُرمى مقدار شبر من طرفيها".

سرت قشعريرة في جسدي أثر هبوب نسيم بارد.. عدّلت من جلستي.. تحرك الأستاذ عبد الجليل وعدّل من جلسته هو الآخر، لاحظ الأمير حركتنا، فقال: "انتم الحضر تخافون الصحراء، وما تحتملون بردها".. وقال أحد الجالسين للأستاذ عبد الجليل: "إلبس غترة يا أستاذ، وغطّي مسامعك من البرد، تراها تُصير حمرة

عند الصباح".. وضحك الجميع.. فجأة قفز الأستاذ شريف من مكانه وهبّ واقفاً ومرتبكاً، فقال أحد الرجال:

- اسم الله عليك، إنت تخاف يا أستاذ!.

قال شريف وهو ينظر إلى الأرض وينفض بنطاله مما اعتقد أنه علق به: "شعرتُ بشيء يزحف تحتي".

نظر الجميع إلى الأرض، كان هناك عقرباً بحجم حبة التين الكبيرة السوداء يزحف على الأرض.. قفز أحد الرجال وقتله بحذائه وقال: "ما تخاف يا أستاذ، الله سلّمك من العقرب".

في ركن جانبي وفي زاوية مظلمة كان الأمير "ابْداح" بن الأمير بدر، الذي لا يتجاوز السابعة من عمره، غارقاً في ضحكة طويلة وهو يراقب الأستاذ شريف.. وفي اليوم التالي تجرأ ووضع عقرباً داخل علبة ثقاب، وأهداها للأستاذ شريف داخل الفصل، وعندما فتح الأستاذ العلبة، انتفض وألقاها من يده على وجه الأمير الصغير، وترك غرفة الفصل وهو يسب ويشتم، ولم يعد للفصل إلا في نهاية الدوام.

تواصلت السهرة، والحديث ذو شجون.. قال أحدهم يخاطب المطوّع:

- يا المطوّع، أنا أبغى شوية قروش حتى يحين موعد الراتب، أبغى ألف درهم.

- زين، لكن إنت تعرف أني ما أعطي دراهم، أنا أبيعك شعير، وإنت تبيعه وتتصرف بثمنه. أجاب المطوّع.
- زين، أنا موافق.
- تأخذ ستة شوالات شعير بألف ومأتي درهم.
- أنا اشتريت.
- قم خذها، تراها في البيت.
- انتم يا الحاضرين وانتم تصلّوا على النبي، من يبغى شعير لحلاله؟ أنا أبيعه. قال الرجل للجالسين.

تعالت أصواتهم.. صلى الله عليه وسلم، عليه الصلاة والسلام.. لكن أحداً لم يرد على سؤاله.. فقال المطوّع:

- بِعْه في سوق الاثنين في المدينة.
- وأنا إيش اوديني للمدينة طال الله عمرك.. تشتريه إنت!.

صمت المطوّع لحظة، وبعد تردد قال:

- زين، أنا اشتريه منك بتسعمائة درهم.
- هذا حرام يا المطوّع، زد وأنا أبيعك. قال الرجل.
- إذا ما بغيت دوّر غيري من أهل الديرة.

تدخّل الأمير وقال :

- علامك يا المطوّع، الرجل يبغى يبيعك، زد المبلغ.
- تسعمائة وخمسين ما في غيرها، موافق!. قال المطوّع.
- أمري لله، موافق، أنا بعتك بللي تقوله. قال الرجل.

مدّ المطوّع يده إلى صدره وأخرج صرة صغيرة من القماش، فتحها وأخرج منها نقوداً وبدأ يعدها، ثم أعاد الصرة إلى عبّه وقال:

- ترى مالي لزوم بالشعير، لكن أبغى أخفّف عنك، وإنت يا الأمير وانتم يا الحاضرين اشهدوا على ما تم بينّا.. خذ حقك يا وليدي.. وأنقده المبلغ، وأنا والأستاذين عبد الجليل وشريف ننظر ببلاهة إلى عملية المقايضة، التي تمّت أثناء السهرة من خلال بيع الشعير وشرائه.

طالت السهرة.. تناول الأمير إبداح عوداً من الثقاب ووضعه بين جفنيّ عينه اليسرى بشكل عمودي، نبّهتُ الأمير جفران لما يفعله ابن أخيه.. تنبّه الصغير لما أقول، صحح جلسته وقال:

- أبغى أظل صاحي.. بس جفوني ما تقبل، قلت أرفعها بالعود.
- حين تنعس يا وليدي دوّر هلك ومنامك، والحين قم لفراشك.

قال جفران لابن أخيه، وأمر الأقرع أن يوصله للبيت.

تضاحك الرجال وعادوا يتسامرون.. قال المطوّع وهو ينظر إلى أبي راجح:

- كيف الحال يا أبو راجح وكيف بنيّتك المدرّسة! عساك تكون ويّاها مرتاحين بديرتنا؟.

أبو راجح تجاوز الخامسة والستين من عمره.. متوسط القامة نحيل الجسم، لكنه سريع الحركة خفيفها.. دائماً يحمل عصاه التي

يتوكأ عليها في يده اليمنى.. لحيته بيضاء تظلل وجهه وتعطيه وقاراً، لكنه ثرثار، فكثيراً ما كان يتحدث عن مغامراته في حيفا ويافا وأيام شبابه في فلسطين.. وكثيراً ما كان يذم الصحراء ويشتم علناً اليوم الذي رماه زمنه في هذا المكان الذي يعتبره سجناً.. أجاب: "الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه".

ساد الجلسة صمت قصير.. قال المطوّع بعدها:

- اسمعوني زين يا الحاضرين، واسمعني إنت يا الأمير.. ترى ما أهرج وأقول الصدق.. انتم تعرفون أني وحيد بالديرة، وأبغى حليلة لي.. وعرفت أن "أبو راجح" عنده مدرّسة زينة، وأنا أطلبها منه على سنّة الله ورسوله.

تهامس الرجال وأخذوا يرددون "صلى الله عليه وسلم، عليه الصلاة والسلام"، ولم ينطق أبو راجح بحرف، فعلّق أحد الجالسين:

- الزواج ما هو بْعيب ولا بْحرام.

أضاف المطوّع:

- ترى يا الأمير أنا أطلبك بالأمر.. أنا أبغاها لنفسي، وأعطي أبو راجح مهرها اللي يطلبه بلسانه.. وأبغى أسمع الردّ..

ظل أبو راجح صامتاً، ومع أنه لم يعلّق بكلمة واحدة ولم يجب، إلا أني شعرت أن الدم يغلي في عروقه، يقفز إلى رأسه وإلى عينيه وهو يحدج المطوّع بنظرات حارقة.. وعندما استعجله

المطوّع بالرد، بدت عليه حركات انفعالية، وأخذ يهز عصاه بيده ويضرب بها على الرمل ضربات خفيفة متتالية.. فقال الأمير جفران وهو يضحك:

- اهرج يا أبو راجح، علامك ما تقول شيء!.

تهامس الرجال وتضاحكوا ثانية.. اعتقد أبو راجح أن المطوّع يمزح بكلامه، ولم يأخذ بجدية الموقف، وعليه أن يكيل له الصاع صاعين، ويُضحك عليه الآخرين كما ضحكوا عليه.. هزّ عصاه وضرب بها على الرمل ثانية وقال:

- بِشَرْط
- اشرط يا أبو راجح، وأنا قبّال اللي تقوله. قال المطوّع مبتسماً في محاولة لإحراج أبي راجح.
- بشرط أن تحلق شواربك ولحيتك الشايبة. أجاب أبو راجح بعصبية واضحة من خلال نبرات صوته.

ثار الدم في عروق المطوّع، شعر بإهانة بالغة ما بعدها إهانة، فحلْق اللحية والشوارب يعني العار عند البدوي، والرسول صلى الله عليه وسلم أوصى بإطالة اللحى، فكيف يخرج عن سنّته وهو مطوّع القرية.. وكيف تجرأ هذا الغريب الأجنبي وقال مثل هذا الكلام لمطوّع الديرة التي يقيم فيها الصلاة ويئم بالمصلين!.. بدا عليه الانفعال واضحاً وثار، وفجأة تناول عصاه وهزّها في وجه أبي راجح وقال بتحدٍ واضح:

- ترى اشهدوا يا أهل الديرة، واشهد أنت يا الأمير.. ترى أنا قبلت شرط أبو راجح، وباكر من الصباح أحلق شواربي ولحيتي، واحشيها في فرْج بنيّته المدرّسة، وأعرس عليها..

هبّ أبو راجح واقفاً يشتم ويلعن، وحاول الاعتداء على المطوّع بعصاه التي مدّها إلى وجهه.. لكن الأمير والرجال الذين هبّوا واقفين أيضاً، حالوا دون نشوب معركة بالعصيّ.. حاول الأمير تهدئة الرجلين ومنعهما من الكلام، ثم طلب من أبي راجح الجلوس، وعندما لم يستجب لكلام الأمير قال له:

- علامك يا أبو راجح، الرّيّال ما أخطأ بكلامه، أنت شرطت والمطوّع قبل شروطك، والبنية صارت حليلته.. علامك زعلت وقمت من المجلس!؟.

ظلّ أبو راجح واقفاً وقال بعصبية للأمير:

- عمرك شفت واحد يبدّل أصيلته بكْديش!. وانسحب من المجلس بعد أن تحوّل الحوار إلى شجار وشتائم، وتبعه الأستاذين عبد الجليل وشريف، وأبو مريم.

جلس الأمير يُهدئ من غضب المطوّع ويطيب خاطره.. لكن المطوّع أصر على موقفه قائلاً للأمير جفران إنه لن يصبر على الإهانة، فهو "يادّ" في كلامه، وفي المجالس مزح الريايبل يدّها.. وأضاف:

- أنا أبغى المدرّسة منك يا الأمير، لأن الحكاية صارت "بويْهك".. أبو راجح اشترط وأنا قبلت شروطه..

- اهدأ يا المطوّع، وإنسَ الموضوع.. لا تلوم أبو راجح، فهو اجنبي، والأجانب جُهال لا يعرفون العادات والتقاليد البدوية.. ثم نظر إليّ وأضاف: "ترى يا الدكتور حِنّا ما نقصدك، إنت تعرف كلامنا زين، إنت واحد مِنّا، وأبغى تروح لبيت أبو راجح وإطّيب خاطره، هو بديرتنا وما لزوم يزعل منا"..

لم يُعجب المطوّع كلام الأمير فقاطعه بغضب:

- أنا مطوّع الديرة، ويقول عني الغريب الأيْنبي بأني "يَحْش"، الخسيس ولد الخسيسة، ما يستحي على شيبته.
- كل مشكلة ولها حل.. قلت للمطوّع، وأضفت للأمير: "بس يا الأمير عيب على مطوّع الديرة يسب أبو راجح في غيابه"..

تلعثم المطوّع، نظر إلى وجهي وحاول أن يقول شيئاً.. لكن الأمير قطع ما يدور بخلده، وقال:

- طال عمرك يا الدكتور، المطوّع في حالة زعل، وما ينلام على كلامه، والحين تصفى القلوب.. بَس إنت قُم وطيّب خاطر أبو راجح.

***

كان أبو راجح في البيت ثائراً، قال بأنهم أناس لا يستحون.. حاولتُ أن أهدئ من ثورته وأصلح ذات البين، قلتُ له أننا نُعتبر أجانب في نظرهم، وباستطاعتهم قطع أرزاقنا.. فقال بعصبية:

- الأرزاق على الله، إذا كان عندي رزقهم يقطعوه.. لكني لن أسكت عن الغلط، بس شو أقول إذا كان حاميها حراميها.

جميلة ابنته لم تكن في البيت، قال أبو راجح بأنها ذهبت إلى بيت مريم، لتقضي الوقت معها أثناء مدة غيابه عن البيت، فطلبتُ منه أن لا يخبرها بما حدث. فقال:

- كيف!، بدّك أسكت يا أبو سعيد!، وافرض أني سكتّ، هل الباقي يسكتون؟، إنت عارف أن كل شيء مفضوح في القرية، وما حدا بقدر يخبي شيء..

قاطعته وقلت بأن كل شيء سيمر مثل سحابة صيف، وتعود المياه لمجاريها.. ولمته على تعرّضه للحية المطوّع التي تمثل الرجولة والفخر والاعتزاز للرجل البدوي، وكان من الأجدر أن يرد طلبه بكلام ألطف وأسلوب آخر.

عادت جميلة بعد نصف ساعة، ولجت البيت غاضبة تشتم وتُهدّد، ألقت بعباءتها جانباً، وقالت إنها عرفت من أبي مريم كل ما حدث في المجلس، وعلّقت:

- يعتقدون أنهم أفضل منا.. يتمسكون بالدين ولا يعرفون منه شيئاً.. وين الأخلاق الكريمة اللي بتحدّثون عنها!.

قاطعتها، وحاولت تهدئتها، فقالت بأن لا شيء يهمها بعد الذي حدث معها قبل المساء أيضاً.. فقد تعرضت عند الطالبات لموقف أسخف من الذي تعرّض له والدها عند الرجال.. وأضافت:

قبل مغيب الشمس وبينما كنت أعطي درساً لطالبات محو الأمية.. طلبتُ من "نوره" أن تمسح السبورة، وكلي اعتقاد أن على مقاعد الدراسة تتساوى الطالبات، ولا فرق بين الأميرة والعبدة، إلا أن الأميرة نوره رفضت طلبي ووقفت بتعال تقول "لا يا أبله، أنا لا أمسح السبورة"، ثم التفتت إلى إحدى بنات الديرة وقالت لها بأسلوب أميري آمر وثقة متناهية، وكأنها ما خُلقت إلا لتكون أميرة فقط: "يا عبده، قومي امسحي السبورة للأبله، قومي".. وبحركة لا شعورية كمن اعتاد الانصياع للأوامر بذلة ومسكنة، قامت الفتاة وهي تقول: "حاضر يا عمّة".. مسحت السبورة وعادت تقول للأميرة بنفس الطاعة والمذلة قبل أن تجلس على مقعدها: "تبغين شيء ثاني يا عمّة"؟.. فقالت نوره: "لا، لا، اجلسي مكانك".. ثم أضافت تخاطبني: "يلّله يا أبله تابعي الدرس"، وكأني عبدة عندها.

صمتت جميلة لحظة وأنا ووالدها نتابع حديثها وحركاتها الغاضبة.. فأضافت بعصبية واضحة: كنت واقفة أرقب مشهد الأميرة والعبدة، ولا أدري ماذا أقول.. لكنني حوّلت الحصّة فيما بعد إلى درس ديني وأخلاقي، وشرحت للطالبات حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "الناس سواسية كأسنان المشط، لا فرق بين عربي على أعجمي إلا بالتقوى"، وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً".. لكن

الأميرة نوره لم يعجبها كلامي، فقامت وخرجت، وتبعنها بقية الطالبات.

***

قاربت الساعة من منتصف الليل قبل أن نسمع طرقاً على الباب الخارجي.. وسمعت صوت الأمير جفران يقول من الخارج: "يا أهل الدار"..

- تفضلّ. ردّ أبو راجح من الداخل وقام يستقبله.

دخل الأمير، سلّم وجلس، بينما انسحبتْ جميلة إلى الغرفة الثانية.. ابتسم الأمير وقال:

- سلّمك الله يا أبو راجح، إنت غريب بديرتنا.. بس حنّا نعزّك مثل اخْويّانا، وابغى منك تنسى ما حدث.

أبدى أبو راجح سخطه على المطوّع من جديد، وتصنّع الغضب، لكن الأمير أخذ يلاطفه، فعدّل أبو راجح من جلسته وشمخ برأسه عالياً وقال: "مِنْ أجل خاطرك فقط".

ولجت جميلة تحمل صينية عليها إبريق الشاي وأربع كاسات فارغة، وجلست على البساط الصوفي مقابل الأمير وهو يختلس النظرات إليها.. قدمت له الشاي وقالت بلا مقدمات:

- أنتم أمراء.. والأمراء يفكّروا بقية الناس عبيد.
- معاذ الله، من يراكم يعتقد أنتم الأمراء وحنّا العبيد.

قال جفران وهو يبتسم وينظر في وجهها بفرح طفل، ومكر ثعلب.. ووالدها يتحدث معي وكأن الأمر لا يعنيه بشيء.. أضاف الأمير بصوت أقرب إلى الهمس: "ابقي حودي عند الأميرة المزيونة تتسامري ويّاها، تراها تحبك وتتمنى لك الخير".

نظرت جميلة إليه بعينين نصف مغمضتين، ثم ابتسمت وقالت بلهجة بدوية: "دارك عامرة بالخير يا الأمير".

قطع أبو راجح خلوتهما الكلامية وطلب من ابنته أن تقوم إلى غرفتها.. تلكأت لحظة، وعندما قامت تمايلت في مشيتها مثل الأميرات، والأمير يلاحقها بنظراته.

طالت سهرة الأمير، وأبو راجح يتظاهر بالنعاس، ويتثاءب بين لحظة وأخرى.. وحين استأذنتُ للمغادرة، قال أبو راجح وأنا انتعل الحذاء: "دل الأمير على الباب يا أبو سعيد".

وقف الأمير بعد أن عرف أنّ أبا راجح صرفه بطريقة لبقة، لكنه تجاهل ما سمع، وخرج دون أن يتفوّه بكلمة واحدة.

تلك الليلة، استلقيتُ على سريري، وأخذت أستعيد في ذاكرتي ما رأيت من مشاهد في بيت أبي راجح، أحسستُ بأني أشهد مسرحية أبطالها يقولون غير ما يفعلون، وأنهم يعلنون غير ما يبطنون، وعجبتُ لموقف أبي راجح، وتساءلت في قرارة نفسي، هل رأى ما رأيت وتجاهل!، أم أن سنوات العمر قد أضعفت بصره!، لكني كنت على يقين أن تلك النظرات التي تبودلت بين

الأمير وجميلة لم تكن بريئة.. فهذا الرجل لم يقتنع بزوجته "حصّة" وهي من أجمل صبايا الديرة، وراح يلاحق النساء في العواصم الأوروبية، كما لاحق كل نساء الديرة، ولم تسلم امرأة من شره.. فكيف تسلم جميلة من مخالبه!؟.

***

جميلة

جميلـة، هـذه المعلمـة، فتـاة شـامية المولـد والمنشـأ والتربيـة والحياة.. تنحدر من أصل فلسطيني، وتجمع بين فطانة أهل الشام ولباقتهم، وصلابة الفتاة الفلسطينية.

هي نموذج لفتاة متميزة، تحمل اسم جميل "جميلة"، لكنها لم تكن جميلة الوجه رغم أنها جذابة، جمالها في سحر ابتسامتها، وغمزات عينيها، وقدها الجميل الممشوق بطول تحسدها عليه سائر نساء الديرة.. يضاف إلى ذلك تحررها من القيود والعادات.. تقترب من الثالثة والعشرين من عمرها، فتاة متدفقة الأنوثة، لبقة، طلقة اللسان، متوقّدة الذكاء لكنها متلّونة كحرباء.

قالت جميلة وهي تسهر مع زوجتي ذات ليلة، إنها ترفض كل التقاليد المتعارف عليها بين الفتيات، خاصة في اختيار فارس أحلامها.. فكل فتاة تحلم بشاب غني ووسيم، متعلم وله منصب اجتماعي رفيع، إلا هي، فهي تهوى الرجل المتزوج وترفض الأعزب، وتُصرّح بأنها تهوى الشاب المتمرّد على كل شيء..

أضافت تلك الليلة: "أنا لا أحب الرجل المُنشّا المرتب، "تقصد الرجل الأنيق الذي يرتب ثيابه"، أنا أهواه مُبَهدلاً جريئاً وقحاً، يضرب زوجته إذا خالفت أوامره، يختلس، ينصب على الآخرين، ويتلاعب على كل حبل".

أشعرتني جميلة أنها ترغب في كل ما هو شاذ وغير طبيعي، رغم أنها من أسرة متعلمة ومحافظة، ولم يكن فيها أميّا أو شاذاً.. ومع أنها تشاطر أسرتها حياتهم الطبيعية في الظاهر، إلا أنها ترفضهم في أعماقها، تضمر غير ما تُعلن، رغم ظهورها كالحمل الوديع أو كالصفحة البيضاء المكشوفة للجميع.. وتعتقد في قرارة نفسها أن كل الناس باعوا شرفهم في سبيل القرش، ولم يبق لهم ما يحافظون عليه.

وعندما تحدثتْ عن أسرتها قالت أن والدتها مثال الشخصية المحترمة، الهادئة الحنون.. أما والدها فقوي الشخصية، لكنه متقلّب المزاج.. وأضافت إنه "دوّخ" النساء أيام شبابه على شواطئ حيفا ويافا، وإنها لن تكون إلا مثله "لعوب".. وتتفاخر قائلة بأنه يعرف هذا الكلام جيداً.

جميلة كانت كابوسي تلك الليلة، عصفت برأسي وأرهقني التفكير بها، قلّدت البدو في حركاتهم وأسلوب حياتهم في مدة زمنية وجيزة، ارتدت ثيابهم، لبست العباءة والبرقع، قلّدت الأميرة المزيونة في تصرفاتها وأوامرها، كما قلّدت الأميرات في مشيهن ورقصهن، عدا أنها تفوّهت بكلمات إباحية أجرأ من تلك التي يتفوّه بها البدو، كما رقصت في كل مناسبات الفرح في الديرة، وتفوّقت على الأميرات في تسريحة شعرها الأسود الفاحم وهي تتمايل به يميناً وشمالاً، أثناء رقصها بين النساء.

جميلة هي ابنة باشا في المجتمع الراقي بحق، وفي المجتمع الصحراوي لا يفرقها المرء عن البدويات.. فلا غرو إن أوقعت الأمير في حبائلها.. إنها فتاة غريبة حقاً، إما أن تكون امرأة متميزة داهية، أو تكون شاذة غريبة الطباع.

فجأة صحا ابني سعيد من نومه وقطع حبل أفكاري.. راح يبكي ونعمة نائمة.. حملته ورحت أداعبه حتى أتخلص من كابوس جميلة.. كان موعد صلاة الفجر قد حان.. تململت نعمة وقالت وهي شبه نائمة:

- عظيم أنك تذكّرت أن لك زوجة وأولاد في البيت.

وقبل أن أجيب سمعتُ صوت المطوّع ينادي للصلاة.. وضعتُ الطفل على السرير بجانب والدته، وقلت لها: "بعد الصلاة سأشرح لك سبب غيابي"، وأسرعتُ أتوضأ لألحق بصلاة الفجر جماعة.

***

جزعة وعبد الله

بعد عصر اليوم التالي، جاءني الأقرع لاهثاً طالباً مني أن أسرع إلى بيت "أبي عبد الله" لحالة مرضية مستعجلة، حملتُ الحقيبة التي أضع فيها بعض الأدوية واللوازم الضرورية للعلاج خارج العيادة، ورافقتُ الأقرع.. كان أبو عبد الله ممدداً على أرضية الغرفة.. عجوز جاوز الخامسة والسبعين من عمره، يحيط به مجموعة من الرجال يجلسون القرفصاء، المطوّع ينظر في وجهه الشاحب ويحاول تحريك يديه ليضعهما على صدره.. وقف عبد الله وقال:

- جيت في وقتك يا الدكتور، ناظر العود "ويقصد والده كبير السن"، الله افتقده برحمته.

تقدمتُ من أبي عبد الله أجس نبضه، قبل أن ألمسه تحرّك المطوّع وأدار وجهه جانباً ماداً يده إلى وجه العجوز، مسّد على وجهه وأسبل جفنيه وهبّ واقفاً يقول:

- الله الذي وهب، والله الذى استرد عطاياه، كل نفس ذائقة الموت، اطلبوا لموتاكم الرحمة.

غرق الجميع في صمت رهيب لفترة وجيزة، قاموا بعدها بتمديده على لوح خشبي، غسلوه وصلوا عليه صلاة الجنازة، ثم حملوه إلى المقبرة القريبة من الديرة ليدفنوه قبل غروب الشمس، كانت الصحراء مغبرّة بلون داكن، ولا علامات تدل على وجود

قبور في تلك البقعة من الأرض.. حفروا حفرة بعمق متر تقريباً وبطول مترين، أنزلوا الجثمان بين أيديهم إليها، ثم بدأوا يهيلون عليه التراب.. فجأة أنّ العجوز وتأوه بصوت خافت، ثم تحرك الكفن وارتفع جزء منه وظهر من بين التراب.. جفل الرجال وتراكضوا في كل اتجاه مخلّفين القبر والجثمان والمطوّع وعبد الله.. بسمل عبد الله ورجف ثم قفز إلى داخل القبر يساعد والده، سحبه من بين التراب، ورفعه إلى سطح الأرض، والمطوّع يقرأ القرآن بصوت جهوري واضح.. نظر العجوز إلى ولده عبد الله وإلى المطوّع نظرة بلهاء ولم ينطق بحرف.. عاد الرجال بعد أن استعادوا شجاعتهم وراحوا يساعدون عبد الله في حمل والده وإعادته إلى البيت، وهم يقرؤون ما تيسّر لهم من الآيات القرآنية، والمطوّع يؤكد لهم أن العود وُلد من جديد، وعاد من الآخرة.

قبل أن يصل الجميع بيوت القرية، تناهى إلى أسماعهم صرخات نسائية تنطلق من بيت عبد الله، صرخ عبد الله من بعيد "العود بخير، جاه عمر جديد".. لكن زوجته "جزعة" صرخت بأعلى صوتها صرخة مدوية جلجلت الصحراء قائلة: "اوْليدك يا عبد الله نهشه الثعبان"، وهرولت إلى داخل البيت تسابق صرخاتها.

تراخت يد عبد الله عن والده، تركه بين أيدي الرجال وركض نحو البيت.. ابنه كان في الرابعة من عمره، كان ممدداً على الأرض وقد تلوّن وجهه بلون أزرق، وانتفخ بعد أن فارق الحياة

أثر لسعة الثعبان.. ووالدته جزعة تضمه إلى صدرها وتغمره بقبلاتها ووجهها الحار وشعرها وذراعيها، وصرخاتها البرية.. كانت تتصفّح وجهه، تجس نبضه وتلطم وجهها.. صرخ عبد الله في وجهها ودعاها للتوقف عن النحيب والبكاء، وقال لها: "حرام عليك، لا تعذبيه بدموعك"، لكن الدموع قفزت من عينيه هو الآخر وهو يحاول إبعاد زوجته عن جثة ابنه، وفي الحال احتضن ولده وحمله بين يديه، وراح يبكي ويضمه إلى صدره.. غامت الدنيا في عينيه، وراحت زوجته تهيل التراب على وجهها ورأسها.. لكن النساء منعنها من الصراخ، كما حاول الرجال أن يبعدوا عبد الله عن جثمان ولده، حثوه على الصبر والجلد ومنعوه من البكاء.. ومع ذلك لم يترك عبد الله ولده، ظل يضمه إلى صدره وهو يتجه إلى المقبرة، والرجال يرافقونه ليدفنوا ولده في نفس الحفرة التي حفروها لدفن والده، قبل ساعة من الزمن.

في طريق العودة، قال المطوّع بأن هذا نِذر لم يوفه عبد الله، لهذا "أخذ الله وليده بدل العود"، وأضاف بأن "العود فيه شيء لله، يعلم الله أن في نفسه رغبة لم تتحقق بعد، وعلى ولده عبد الله أن يحققها له".. لكن عبد الله لم يسمع شيئاً، كان غارقاً في أحزانه، فأعاد المطوّع ما قاله ثانية على سماع عبد الله الذي علّق قائلاً: "أظن أن العود طال الله عمره قال في السنة الماضية أنه يبغى يعرس مرة ثانية قبل ما يموت".

تنفّس المطوّع الصعداء، وشعر بزهو وهو يؤكد أن إحساسه لا يخيب، واعتراف عبد الله هو دليل قاطع على صدق أقواله.. فطلب منه أن يحقق رغبة والده ويزوّجه قبل أن ينتقم الله منه، فوالده من الصالحين.

***

صباح اليوم الثالث كان عيد الأضحى..

في الخلاء جلس الرجال للصلاة ونسمة الصباح تلفح وجوههم، ينصتون لخطبة العيد والمطوّع يرشدهم إلى أمور دينهم، ويُذكّرهم بذبح الأضاحي.. وعندما أقيمت الصلاة قام الأمير بدر وأمّ بالمصلين.. ثم راحوا مع نهاية الصلاة يُسلّمون على بعضهم البعض بملامسة الأنوف.

العيد له طقوسه وعاداته الخاصة في الديرة، فبعد أن انتهت الصلاة، راح العبيد يذبحون الأضاحي لتقديم الطعام لكل أهل الديرة لمدة ثلاثة أيام متواصلة.. ومنذ الصباح أيضاً أخذ الرجال يتوافدون على الأمراء للسلام عليهم.. كما قصدت النساء مضافة الأميرة مزيونة للسلام عليها.

في العيد يتبادل الرجال والنساء الهدايا والذهب.. أما الصغار وخاصة الفتيات الصغيرات والصبايا فيدُرْن على بيوت الديرة، يُسلّمن ولا يخرجن إلا وهن يحملن هدايا العيد.. وفي المساء تقوم النسوة بزيارة بعضهن البعض، ويُقمن حلقات الرقص والغناء.

في مضافة الرجال كان عبد الله يبادل الرجال أحاديثهم وكأن لا شيء حدث بالأمس القريب، وفي بيتي كانت نعمة حزينة، تُذكّرني بالأقارب والأحباء الذين لم يغيبوا عن بالي لحظة.. وحين دعوتها لزيارة جزعة زوجة عبد الله والتخفيف عنها بفقيدها.. رحّبت بالفكرة وقالت: "الله يصبّرها على فقدان ابنها".

قابلتنا جزعة في المجلس، رائحة عطرها الأنثوي المثيرة كانت تملأ الغرفة والجدران، ترتدي فستاناً حريرياً جديداً، وتُزيّن معصميها بأساور من الذهب.. وعندما أزالت البرقع عن وجهها لتسلّم علينا، ظهر عقد ذهبي في جيدها وقد تدلى حتى كاد يغطي صدرها، أما وجهها فكان يطفح بلمسات مكياج حقيقي، وكأنها خارجة لتوها من أحد صالونات التجميل.. ابتسمت وهي تقدم لنا القهوة.. نظرت زوجتي نحوي وتساءلت بعينيها إذا كان ابن جزعة قد توفي فعلاً.. تنبّهت جزعة لنظرات زوجتي، فقالت:

- كيف أترك العيد يمر دون فرح.. اوْليدي غدا.. أطلب له الرحمة من الله، وولد عمي عبد الله موجود، ويجي بدل الوْليد عشرة بإذن الله.. لكن العيد عيد المسلمين ما أتركه يروح مني!.

بدهشة واستغراب كانت نعمة تنظر إليها، حاصرت نظراتها جزعة وكأنها لا تصدق ما تقول.. ظهرت مسحة من الألم الدفين على وجه جزعة، وحاولت أن تخفي دمعتها، قالت بانكسار: "إنتو

جايين تفرّحوني، ولاّ تزيدوا همومي وأوجاعي!". وألقت بجسدها على الصوفة وهي تبكي وتخفي وجهها وراء البرقع بين راحتيها.

تأخرت دموع جزعة كثيراً وهي تبكي لهب الحنين واللهفة والشوق والحرمان والموت، "حدثت نفسي"، وعندما أخذت تغني ترويدة بدوية حزينة.. انساب الكحل الذي يحيط بعينيها السوداوين وذاب في الدموع، بدت وجنتاها بلون الورد الأصفر الذابل الملطخ بالرماد.. كانت تتمزق من الأعماق وترحل مع قلوب الرجال وهم يأخذون ولدها للقبر.. جلست في الصوفة وبدأت بالعويل.. قالت إنها بالأمس كانت ترسم له وشماً جميلاً في ذاكرتها يقيه من السحر، والوقوع في مهالك الجن والإنس والشياطين والموت.. أما اليوم، فقد علّمها الموت الفزع من الناس واللجوء إلى كنف الانزواء والوحدة، والاختباء وسط رمال الصحراء.

ذكّرتها زوجتي بقضاء الله وقدره، فقامت جزعة تمسح دموعها بمنديل ورقي، وقالت وهي تحاول أن ترسم ابتسامة على وجهها من جديد:

- أنتم الحضر تْفكّرون حِنّا البدو ما لنا قلوب.. اشْلون تفكّرون!.

اعتذرت زوجتي، فأضافت جزعة وكأنها لم تسمع:

- أنتم تعرفون اوْليدي.. هذا اوليدي إللي راح وغدا، مو غريب عني، هذا كبدي يا بعد عمري، تعرفون أن الحزن بالقلب، بس حنّا نتصنّع الفرح على وجوهنا.

قالت جزعه ذلك ومسحتْ ما بقي عالقاً في عينيها من دموع، ثم قامت إلى دلة القهوة ثانية، صبّت لنا القهوة وقدمت التمر والحلويات بصوت مخنوق.. وقبل أن نخرج من بيتها خلعت العقد الذهبي الذي كان يُزيّن جيدها وقدمته هدية لزوجتي قائلة: "عيدكم مبارك.. هذه العيدية للوْليد سعيد".

تلعثمت نعمة وحاولت رد العقد، لكن جزعة رفضت وأصرّت على تقديم هديتها قائلة: "الهدية ما تنردّ، اشْلون العيدية!".

عند الباب وقفت جزعة تودعنا وهي تمسح الدموع التي تحجّرت في عينيها، وأضافت بألم: "أنتم تعرفون أن الحياة بدون أطفال ما هي بحياة، مثل الصحراء".

في البيت ضمت زوجتي طفلها سعيد إلى صدرها، وغرقت في بكاء حارق.. قالت إنها تبكي على جزعة التي تتمزق من الأعماق، ومع ذلك تُظهر لنا الابتسامة، حتى لا تُشعرنا بالغربة ونحن بعيدين عن الأهل والوطن.

***

ضيف الأمير

- الأمير زايد يبغاك في الحال..

قال لي الأقرع بعد ظهر أحد الأيام، وانصرف في عجلة من أمره.

الأمير زايد هو الأصغر بين أخوته، يبلغ من العمر الخامسة والعشرين، متزوج من أميرة منذ أكثر من خمسة أعوام.. شاب طموح، وفارس مغوار كما يقال عنه.. دائم التفكير في مستقبله.. ودائماً يرتدي عباءته السوداء، ويتزّين بغترته البيضاء التي يزيّنها بعقال أسود مقصّب بخطوط ذهبية، دائم الحركة في ترتيبهما، يحاول تقليد والده الأمير مشعل وأخيه الأمير البدر في لبس العباءة والحركات، يعتني بمظهره جيداً.. لا يخون الصداقة، ولا يتردد في تنفيذ كل ما يقتنع به.

كان يستقل سيارة الجيب عندما وصلت، ما أن شاهدني حتى استعجلني بالصعود إلى جانبه، وأسرع باتجاه الصحراء مُخلّفاً وراءه زوبعة من الغبار.

بعد ساعة من المسير المتواصل دون أن ينطق بحرف، توقّف في أرض مقطوعة.. تناول حقيبة يد سوداء كان يضعها على المقعد الخلفي في سيارته، وترجّل طالباً مني النزول أيضاً.. قال بلا مقدمات: "أنا أبغاك في مسعلة"، "مسألة"، وجلس على الرمال الذهبية اللون وطلب مني الجلوس أمامه.

علاقتي مع الأمير زايد قوية ومتينة، فهو يثق بي ويستشيرني في معظم أموره.. لهذا تركته يقود سيارته ولم أسأله عما يقلقه أو إلى أين يتجه!.. فقد تعوّد أن يبوح لي بكل أسراره.. قال إنه تم تعيينه لتوزيع الرواتب على الحرس.. باركتُ له عمله الجديد، فأضاف وكأنه لم يسمع: "أنا أبغى منك أن تحفظ السر اللي أقولك إياه".

ابتسمت وقلت: "من يسمعك يعتقد أنك تبغي.."، قاطعني وهو يفتح الحقيبة ويُخرج منها قلماً ومجموعة من الأوراق:

- لا يروح مُخّك لبعيد، أنا لا أهرج معك، اسمع زين.. أبغى منك تسجّل لي مائة اسم من أسماء رياييل البادية.. أنا أثق بيك ولا وقت عندي.. عند الصباح أنوي السفر لاستلام الرواتب وتوزيعها.
- زين، لكن أخبرني ما الفائدة من تسجيل هذه الأسماء!
- افهمني زين، الرواتب على عدد أسماء رياييل الحرس، وأبغى أزيد العدد لصالحي..

حوار وجدل عقيم دار بيننا، قال:

- إنت اكتب وما عليك شيء.. الأموال أموالنا والديرة ديرتنا، والرياييل في البادية رياييلنا، وما أحد يدوّر عليهم أو يعرفهم غيري.

سألته إذا كان والده يعلم بالأمر!. تقطّب جبينه وتفرّس في وجهي وقال:

- يا دكتور، أنا ايش أقول من الصبح، مش أنصحك تحفظ السر.. الريابيل يعيشون في الصحراء، حتى أنا ما أعرفهم.. إنت ما تفتهم!.

كان الأمير جاداً فيما عزم عليه.. بدأت بتسجيل الأسماء.. سجّلت أسماء كثيرة من بنات أفكاري مكوّنة من مقطعين فقط، الاسم الأول واسم القبيلة، وحين توقّفت الذاكرة عن التقاط أسماء جديدة، قال: إنت واصل الكتابة وأنا أريد أحسب مسعلة ثانية.

فتح باب السيارة وتناول منها عصاً قصيرة، وجلس يخط فيها على الرمال، ويتمتم بشفتيه كلمات غير مسموعة.

تلك الساعة كتبتُ أسماء معظم الحيوانات البرية وزواحف الصحراء، عدا الأسماء البدوية التي التقطتها ذاكرتي، ثم قمت بتصغير الاسم وأعدتُ كتابته من جديد حتى أزيد العدد إلى أن وصلت إلى الرقم سبعين.

قبل مغيب الشمس توقّف عن حساباته، وقال يستعجلني:

- عساك انتهيت؟.
- بقي ثلاثون اسماً.

ابتسم وقال: زين نتذكّرها وحنّا في طريقنا للديرة.

في الطريق سألته عما كان يشغله طيلة الوقت وهو يخط بالعصا على الرمال، فقال:

- أبغى أعمل صندوق ظمان للحرس، واحسم من كل راتب واحد منهم اثنين في الميّه، وكنت أحسب كم أجمع في السنة، أنا عارف ما حد يسعلني عن المبلغ.. ثم ضحك وأضاف: أنا أخطط زين.. وابغى الحرس يذكرني بالخير.

قلت له بأن عدد الأسماء لم يكتمل، فقال بغير اكتراث: "ما يهم".. صمت لحظة ثم أضاف وهو يضحك: اكتب اجْحيش بن طرّاد، الحين تذكّرته. "تصغير لكلمة جحش".

على حين غرة، ظهرت لنا أنوار رتلٍ من السيارات من على بُعد، تتجه نحو الديرة.. أوقف الأمير سيارته فجأة وأطفأ أنوارها، صمت لحظة ثم قال: "أنا ما أبغى الحرام، لعنة الله على الشيطان، شق الأوراق اللي بيها الأسماء وارميها، أبغى فقط أحسم اثنين في المية من راتب كل واحد".. ثم نظر إلى قافلة السيارات وأدار محرك السيارة، وبسرعة فائقة دار بطريق جانبي في محاولة لاعتراض القافلة.. فجأة ابتعدت السيارات عن بعضها ودارت دورة كاملة في الصحراء، ثم ظهرت ثانية تحيط بسيارة الأمير زايد مسّلطة الأنوار عليها من كل جانب.. توقف الأمير بسيارته، وقبل أن يترجل من السيارة، قفز رجال مسلحون ببنادق رشاشة من سياراتهم وأحاطوا بسيارة الأمير.. دار حديث قصير بينهم، ثم ترجل وسار معهم نحو سيارة أمريكية حديثة كانت متوقفة وسط القافلة.. وعلى أنوار السيارات الكشافة ترجّل رجل بعباءة

سوداء من السيارة الأمريكية الفخمة وصافح الأمير زايد، ثم راحا يتعانقان.

قال لي الأمير زايد وهو يقود سيارته أمام قافلة السيارات التي تتبعه إلى الديرة، بأن الأمير "شبيب" هو أحد أمراء الخليج، وقد جاء إلى الديرة في رحلة قنيص، وسيحل في ضيافتهم ثلاثة أيام بلياليها.

على بعد مئات الأمتار من القرية، وفي منطقة منبسطة ومطلّة على بيوت القرية توقّفت القافلة.. ترجّل الرجال وأنزلوا حاجاتهم، وبدأوا ينصبون الخيام لاستراحة أميرهم، بينما أسرع الأمير زايد إلى القرية والفرح يملأ جوانحه، وعاد مع الأميرين بدر وجفران للترحيب بالأمير شبيب والاستعداد لضيافته.

لم ينم الرجال تلك الليلة.. قاد أبناء القرية عشرات الخراف إلى المكان الذي خيّم فيه الأمير شبيب ورجاله.. ذبحوا الأغنام وأعدوا لهم الطعام.. ثم أقيمت الأفراح لثلاثة أيام بلياليها.. كان الرجال خلالها يرقصون ويغنون، يتقدمون ويتأخرون، يُتقنون السحجة ويُبدعون الحداء وهم يحملون سيوفهم المشرعة وبنادقهم الرشاشة، ويطلقون النار في الهواء حتى الصباح..

في اليوم الرابع سرت شائعة في القرية تقول إن الأمير شبيب يرغب بالزواج من إحدى بنات الديرة، رغم أنه تجاوز الخامسة والستين من عمره، تنازل عما يملك لأنجاله الأمراء، وتفرّغ لممارسة هواياته المفضلة الزواج والقنيص.

تأكّدت الشائعة التي سرت في القرية عندما طلب الأمير شبيب من الأمير بدر مصاهرته قبل أن يغادر الديرة.. وفي الحال أخذت الفتيات يتبرّجن ويلبسن كل ما بحوزتهن من جواهر وحلي، ورحن يتبخترن في طرقات القرية الترابية، ثم يتجهن نحو مخيم الأمير شبيب ورجاله، وهن يتمايلن بقدودهن الرقيقة وثيابهن البدوية الفضفاضة، وعادة ما يُزم الثوب عند الخصر ثم يأخذ بالاتساع عند الردفين وينداح على الساقين، فلا يُرى من الفتاة وهي تتبختر بمشيتها غير فستانها الواسع الذي يتهادى بهدوء، وكأن تيار هواء ناعم يدفعه إلى الأمام ويُحرّكه.

قال الأقرع أن من عادات وتقاليد أهل الديرة، أن يُقدّموا للأمير الضيف إحدى أجمل فتيات الديرة ليتزوجها.. وعندما يغادر الديرة بعد أسبوع على الأكثر يتركها عند والديها، ومن عاداتهم في الزواج أن تهرب العروس من زوجها في الليلة الأولى، وقد يفسح العريس لها مجالاً للهرب بعد أن يزيل البرقع عن وجهها عنوة ويتأمله، وهذا المسموح به فقط تلك الليلة.. أما الليلة الثانية، بعد إعادتها إليه ثانية، فيبقيها عنده ثلاثة أيام في بيت من الصفيح أو الشعر قرب بيت والدها، فإن حملت وأنجبت في عامها الأول فإنه يأخذها إلى بيت جديد بعيداً عن بيت والدها، وتنفصل عن حياة أهلها، كما يهبها قصراً في المدينة ومالاً وذهباً، وتبقى حليلته كلما عاد إليها.. وإن لم تنجب فتبقى في بيت والدها أو في قصر زوجها.. وفي هذه الحالة للزوج حرية الاختيار في أن

يطلقها أو يبقيها على ذمته، ويعطيها مبلغاً من المال، وراتباً شهرياً مدى العمر بشرط ألا تتزوج مرة ثانية.. فإذا تزوجت خسرت راتبها الشهري الكبير.

ومن عاداتهم في الزواج أيضاً "كما قال الأقرع"، أن ترفض العروس عريسها، وتتمنّع عنه ليلة الدخلة، تصرخ بأعلى صوتها في محاولة تعبيرية عن رفضها له، حتى لو كانت تتمناه وترغب به قبل الزواج.. وعلّق في نهاية حديثه "قاتلهن الله، يتمنّعن وهن الراغبات".

الأميرة المزيونة كانت بعيدة النظر عندما استشارها ولدها الأمير بدر في طلب الأمير شبيب.. أشارت عليه أن يُزوّج الأمير شبيب من "منيرة"، ابنة الديرة الصغيرة السن.. أما أميرات الديرة فهن أميرات بحق، وتبغى تزويجهن لأمراء أصغر سناً من الأمير شبيب، أكبر قدراً وأكثر مالاً وعزاً وشباباً، ولا زالوا على رؤوس أعمالهم يحكمون ويرسمون في بلدانهم.

تجددت أفراح الديرة من جديد مع مصاهرة الأمير شبيب.. وبدأت الأفراح استعداداً ليوم الفرح الكبير..

الأغاني لم تنقطع، والرجال يغنون ويرقصون ويدقون الطبول ويقيمون السامر أيضاً.. يختلط أحياناً الرجال بالنساء، فيرقص الرجال داخل حلقة الرقص الأنثوية المعقودة في الخلاء، وعندما يقترب الرجال من حلقة النساء يدب الهرج بينهم، ويرقصون بأيد متشابكة، تتطاير الغُتر عن رؤوس الرجال، ويُلقى بها على

رؤوس النساء، والنساء تُزال براقعهن أيضاً، وتتغامز العيون تحت النور الذي يطل من المصابيح الكهربائية المعلقة بحبال طويلة، بين بيوت الشعر والبيوت الطينية.

***

"منيرة" فتاة صغيرة وجميلة أيضاً، لم تتجاوز الثالثة عشر من عمرها، تربّت في البادية مع والدها بعد أن توفيت والدتها، كما قال الأقرع.. بعد أن تزوج والدها من إحدى نساء الديرة، أخذت الأميرة المزيونة على عاتقها تربية منيرة، ترعاها وتعطف عليها.. ومنيرة تسرح بأغنام الأميرة، تجوب بها ضواحي الديرة وتتعرف على رمال الصحراء.. وحين أقيمت الأفراح، لم تكن تعرف أنها ستُزف إلى الأمير شبيب.. كما لم يخطر ببالها أن تكون هي العروس المنشودة، فقد عاد بها والدها مساء تلك الليلة من المرعى.. كانت ترقص وتغني مع الصبايا والفتيات الصغيرات منذ بداية الليل.. وعندما أتين بها النساء إلى المضافة، قمن على عجل بخلع ثيابها القديمة، حمّمنها بالماء والصابون المعطر، وألبسنها ثوباً جديداً ونظيفاً يليق بمقام الأمير، وقلائد من الحلي والمصاغ والذهب الخالص، وهي تجول بنظراتها مندهشة وفرحة، لا تصدق ما تراه بعينيها وهن يضعن المساحيق على وجهها.. وعندما أجلسنها في واجهة المضافة وأخذن يغنين ويرقصن من جديد، بدت أجمل وأبهى من كل بنات الديرة.. فجأة

اندفع والدها إلى داخل المضافة وقال لها أن هذا يوم زفافها، وأن الأمير شبيب حليلها على شريعة الله وسنّة رسوله.

صرخت منيرة بأعلى صوتها "لا"، تحللت من العقد الذهبي الذي يلتف على رقبتها كأفعى، وحاولت أن تمزّق ثيابها.. غير أن النساء أعدن العقد إلى جيدها وهدّأن ثورتها، ثم لففنها بعباءة سوداء وحملنها بين أيديهن وهي تصرخ: "ما أبغاه، ما أبغاه".. والنساء يرقصن ويتمايلن بشعورهن وأطرافهن، ويرفعن أصواتهن بغنائهن ليطغى على صوت منيرة.

وصلت العروس إلى بيت الشعر الذي أقيم خصيصاً ليوم الفرح، وهي تقاوم وتصرخ، ووالدها يتقدم الزفة.

الأقرع كان هناك، قال لي بعد صلاة الفجر: كان الأمير شبيب ينتظر عروسه في بيت الشعر بفارغ الصبر، يجلس فوق سرير فُرش عليه شرشف أبيض.. عند مدخل البيت صرخت العروس ثانية، فدفعها والدها إلى الداخل وخرج تاركاً ابنته لمصيرها مع الأمير.. حاولت منيرة اللحاق بوالدها، لكن النساء تجمعن ودفعنها نحو العريس الذي كان واقفاً يرقبها بصمت.

صرخت العروس ثانية وثالثة، وبكت بدموع حقيقية.. تحرك الأمير شبيب وخطا خطوة نحوها.. صرخت، عاد للسرير ثانية.. خرجت النساء وأغلقن باب بيت الشعر من الخارج، ثم عدن وتجمعن حول البيت يتلصصن ويستمعن لمقاومة العروس..

والأمير وعروسه يتوسطان بيت الشعر على ضوء خافت، وكأنهما يدخلان حلبة مصارعة وسط حشد من المشاهدين.

تقدّم الأمير نحوها ثانية، صرخت، دفعته بيديها دون أن تنظر إلى وجهه.. تراجع إلى الوراء وكاد يسقط على الأرض، عاد واستجمع قواه وهجم عليها بكل قوته.. وقعت على الأرض.. صرخت، تعالت أصوات النساء في الخارج بالغناء وطغى على صراخ العروس.. اندفعت العروس نحو الباب، دفعنها النساء ثانية إلى الداخل.. كان العريس يقف خلفها مباشرة، تقابلا وجهاً لوجه، دفعته ثانية بيديها، أمسكها من وسطها وضمها إليه، ضربته بكلتا يديها على صدره.. صرخت من جديد، صوت الدفوف والطبول في الخارج طغى على صراخها.. الحلق الذهبي الطويل والعقد الرشراش والحزام الذهبي كانت عقبة في طريق مقاومتها للعريس، حاولت أن تخلع كل ما يُقيّدها لتتحرر من قبضته.. صرخت في وجهه "ما أبغاك، ما أبغاك"، ضاع صوتها ولم يسمعها غيره.. تردّد صدى الصراخ وعاد إلى أذنيها فقط.. رائحة العطر الذي دلقته عليها الأميرة الجوهرة زوجة الأمير البدر أثناء خروجها من المضافة ملأت بيت الشعر، وأثارت المكامن الحسية في الأمير، دفعها نحو السرير.. قاومته بكل قوتها ورفسته برجليها، ألقى بثقله عليها، بدأت المقاومة تخف تحت ثقله، استسلمت لقدرها وقوته.. أدارت وجهها جانباً وراحت تذرف دموعاً حارة.. اختنقت صرخاتها البرية والوحشية في

أعماقها، وهي تئن تحت وطأته قبل أن تهدأ أنفاسها، والأمير لا يبالي، يلهث ويخور فوق جسدها الصغير.

أضاف الأقرع الذي كان خادم العروسين تلك الليلة: أطلق الأمير سبيل العروس بعد دقائق معدودة، قامت وتكوّرت في الزاوية مثل قنفذ.. اندفعت الأميرة الجوهرة إلى داخل الشق تتبعها خادمتها تحمل صحناً مليئاً بالأرز واللحم.. رائحة العطر الأميري اندفع أمامها وملأ بيت الشعر.. قفزت منيرة نحوها، كاد الصحن أن يسقط من يدي الخادمة، قالت الأميرة "عُرْس مبارك" وطبطبت على ظهر منيرة وقبّلتها في وجنتها، وهي تمسح الدموع من عينيها، ثم قادتها بلطف نحو الأمير، وأضافت: "كلي ويّا الأمير حتى تتقوّي لآخر الليل".

تلك الليلة بكت منيرة بحرقة من أعماقها كما قال الأقرع، وصرخت: "أنا ما أبغاه يا عمّتي.. أرجاك خذيني وياك".. لكن الأميرة الجوهرة تعرف أن كلمتها مطاعة ولا تُرد.. وقفت قبالتها.. نظرت في عينيها مباشرة.. أخفضت منيرة بصرها إلى الأرض ولم تنبس ببنت شفه، فهي تعرف الأميرة ومدى سطوتها على أبناء وبنات الديرة.. هذه المرأة ذات البشرة الحنطية كبشرة سائر أهل الصحراء، وجه متطاول ونهدين مليئين في تحفز دائم للانفلات من اختناقات الثوب، أما قامتها فكانت طويلة بخصر نحيل، ساقاها طويلان أيضاً وردفاها عريضان.. "كما وصفها الأقرع"، ودائماً تخفي جمال وجهها تحت برقع لا يظهر منه غير

عينين تحت حاجبين كسيفين مسلولين، بجمال ذو سطوة ونفوذ على أبناء الديرة كلها.. ومع أن الأمير بدر تزوّج عليها من الأميرة العنود، إلا أنها ظلت هي أميرة الأميرات في الديرة.

شعرت منيرة أن لا ملاذ لها غير الرضوخ للأمر الواقع.. نكّست رأسها وانصاعت لأمر الأميرة التي خرجت والخادمة تتبعها، وأغلقت باب بيت الشعر من الخارج.

جلس الأمير وبدأ يأكل طعامه ويرقب العروس.. أخذ يلاطفها أثناء تناوله الطعام بكلام لم تسمع ولم تفهم منه كلمة واحدة.. رفضت أن تشاركه طعامه، تكوّرت في الزاوية المعتمة تحدّق في بقعة من النور الخفيف، المتسرب من الخارج إلى داخل بيت الشعر، وبدت متحفزة مثل وحش ينوي الانقضاض على فريسة.

عيناها كانتا مسلطتان على بقعة النور، شاهد الأمير خصلات شعرها الناعمة المتفحمة السواد مشعّثة.. تتلوى بكل طاقاتها وتُختزل في جلد قنفذ ينطوي على نفسه، كأنها نقطة ملمومة ومطوية في أعماق بئر مظلم.. تتحصّن وراء حدود ثوبها، وتتجعد عذوبة أنوثتها المنسابة.. فجأة وفي لحظة تشاغل الأمير بطعامه قفزت إلى الخارج، حاول اللحاق بها، لكنها اختفت في الظلام، ووصلت بيت أبيها قبل أن يُدركها أحد، ويُعيدها إلى كهف الأمير.

***

صباح اليوم التالي دبّت الحياة في القرية من جديد.. ذُبحت الأغنام وأعدّ الطعام لكل أهل القرية، عند المساء تجمع الرجال وبدأوا يدقون الطبول من جديد.. كما تجمعت النساء وأعدن نفس المشهد الذي حصل ليلة الأمس، لكن بصيغة جديدة هذه المرة.. فقد ألبسن النساء العروس كل مجوهراتها وحليها الذي قدّمه لها الأمير، وأجلسنها على دوشك في صدر المجلس، ثم بدأن النقر على الدفوف والرقص والغناء حتى منتصف الليل.

كانت النساء يستعرضن في الرقص كل شيء، كن يحملن الرغبة ويفرغنها في الرقص وفي الأفراح.. وكانت المرأة وهي ترقص تستسلم لوقع الطبول وكأنها تستسلم للحب بخجل ودلال في البداية.. تُحرك جسدها ثم ردفيها يمنة ويسرة، تستيقظ أنوثتها المخنوقة تحت ثقل ثيابها وصيغتها، وتصبح أجمل في إغرائها وهي تهز صدرها، وتتمايل بردفيها كأنها تستعيد يوم زفافها.. يتواطأ الرقص مع الجسد المحموم، تزيد الاهتزازات بقوة وبسرعة.. تنفك ضفائر النساء وتتطاير خصلات شعورهن، ينطلقن في الرقص كمخلوقات بدائية يتمايلن ويتلوّين وجعاً ولذة، يفقدن خلالها كل علاقة بما حولهن، وكأنهن خرجن فجأة من أجسادهن، حتى يصلن إلى ذروة اللاشعور واللذة.

أما منيرة، تلك العروس الصغيرة، فلم تُعبّر عن فرحها تلك الليلة، ومع ذلك لم تكن خائفة كما حصل لها في الليلة السابقة..

فالأميرة المزيونة كانت تقف بجانبها، وتهمس في أذنها: "هيا يا عروس، قومي يا بنيّتي إلى عريسك".. تتمنع منيرة بدلال ورغبة، لكن النساء لم يمنحنها فرصة جديدة.. هجمن عليها، لففنها بالعباءة وحملنها وأسرعن بها إلى بيت الشعر، وهي تصرخ بين أيديهن "ما أبغاه، ما أبغاه".

في بيت الشعر لم يكن الأمير موجوداً هذه المرة، اطمأنت وجلست على السرير، تراقب النساء وهن يغنين ويرقصن وعينيها تملؤهما الدموع.. فجأة ظهر الأمير وسط النساء، فخرجن النساء وتركن العروس وحيدة تواجه مصيرها المحتوم.

أضاف الأقرع: ارتعشت منيرة، تكورت في جلستها وأخفت وجهها، أغلق الأمير باب الشق من الداخل وربطه بإحكام، تسمّرت في مكانها.. عرفت أن لا فائدة من الصراخ ولا مكان للهرب.. كان الأمير مستعداً للعراك والمصارعة هذه المرة.. وحتى تُقّوت عليه الفرصة، وقبل أن يبدأ الصراع من نقطة الصفر، ويقاتل آدم في سبيل الحصول على جسد حواء، ويتنسم عطرها وأريجها.. تمدّدت على ظهرها فوق البساط بعيداً عن السرير، ووجهها بمحاذاة باب بيت الشعر، وأرخت لدموعها العنان.

كانت تحملق في الظلمة، وتحتمي بالحلق الذهبي والحزام وعقد الرشراش.. اقترب منها، بغريزتها عرفت أن الفريسة وقعت في

المصيدة التي لا انفكاك منها، ولا مجال للهرب.. شعرت أنه مستعد أن يُضحي بحياته من أجل هذه الليلة، استسلمت لقدرها وخنقت الصرخة الأخيرة في أعماقها، فاسحة المجال لأنفاسه اللاهثة المتلاحقة أن تصل إلى أسماع النساء في الخارج.

***

شريف

قبل أيام عدة سهرتُ في بيت شريف.. كان يشكو من ألم في ظهره، أعطيته أقراصاً مهدئة، ونصحته أن يراجع طبيباً مختصاً في العطلة الصيفية.. كان متشائماً تلك الليلة.. اعتقدت أن الألم هو علته، لكنه نفى ذلك وقال إن المنفى الذي فرضه على نفسه، هو سبب مرضه.. أضاف: "بعد هذه الأعوام التي قضيتها في هذه القرية، أشعر أني أصبحت كالغراب الذي حاول أن يقلد الحمامة في مشيتها، فلم يستطع، وعندما عاد لمشيته كان قد نسيها.. لا بئراً هوى ولا جبلاً صعد، كالمنبت لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع.. وهكذا أنا، لا عشت حياتي، ولا جمعت ثروة.. وكل ما وجدته رمال وصحراء وأمراض".

حامت فراشة حول المصباح، تبعتها فراشات بيضاء اللون صغيرة، لامستْ إحداها لمبة المصباح، رفرفت بجناحيها وابتعدت، عادت ولامست المصباح ثانية، وسقطت تتلوى على أرضية الغرفة.. كنت وشريف نتابع المشهد بصمت.. علّق شريف: "في الوطن كنت أبني أحلاماً لغربتي، أفكّر في النور فقط، ونسيت أنني سأسقط في النار وأحترق مثل هذه الفراشة".

- ماذا دهاك يا شريف، لم يبق للعطلة الصيفية سوى عدة أشهر.. وما أن تصل الوطن حتى تشتاق للصحراء والغربة، وتعود قبل انتهاء العطلة..

تـأوه شـريف مـن جديد، تمعّن فـي الفراشـات التـي تحـوم حـول المصباح وتتساقط واحدة بعد الأخرى، وأضاف كأنه يحدث نفسه:

- لكن الغربة انتحار بطيء.. في الصحراء عدنا بدائيين، وما جنيته طيلة سنوات الغربة، سأدفعه خلال أيام على صحتي لإعادة ترميمها من جديد بعد العودة.

صمت لحظة ثم أضاف: نحن نحتضر في الصحراء، كمجموعة من السمك المرمي على شاطئ البحر أو على الرمل الحار ليموت.. ذاكرتي التي كانت ترحل حتى إلى رحم أمي، نسيت استعمالها وأنا أدرّس ألف باء تاء للصفوف الابتدائية، أنهيت الدراسات العليا وعدت للصفر، البطولة الوحيدة والممكنة لمن هو مثلي هي الهروب من هنا والبقاء حياً.. سأستقيل، لم أعد أحتمل. ثم نظر إلى وجهي وأضاف كمن يلتقط فكرة جديدة: "لا، ليس هذا الحل، ولا يمكن أن يكون استقراراً، الاستقرار الحقيقي لمن هو مثلي حين يُمدّد جسده في قبر، ويهيلون عليه التراب، سأعود للوطن وأموت هناك".

شـعرتُ أن شـريف يائسـاً ومتشـائماً حتـى الثمالـة.. نادمـاً علـى غربته التـي لـم يحقق منهـا غير المـرض، قـال بـأن الوافدين هنـا أشبه بطيور النورس التي تعيش على الشطآن والبحـار وملاحقـة السفن.. تموت إذا تركت مناخها الطبيعي أكثر من مدة معيّنـة، فكيف إذا نُقلت للصحراء!.

الاغتراب يضع المرء وجهاً لوجه أمام نفسه، حدثت نفسي.. بعض المغتربين يعتقدون أن كل البلاد أوطان لهم، طالما وجدوا فيها متسعاً من الرزق وقسطاً من الراحة.. لكنهم في الواقع يجلدون أنفسهم بهمّ الغربة والحنين الدائم إلى مساقط رؤوسهم.. وفي محاولة للحد مما كان يعانيه شريف تلك الليلة، قلت له مازحاً: "لقد جعلتك الغربة فيلسوف عصرك".. تنهّد وكأنه لم يسمع وقال: "بالأمس سألني أحد الطلاب عن معاناتي بعد أن لاحظ شرودي أثناء الحصّة.. قلت له بأن الراتب الذي آخذه من الوزارة هو بدل موافقتي على الحياة في الغربة، أي أنه بدل قبولي منفاي الاختياري، لا بدل تعليم الطلاب".

دفعني شريف تلك الليلة لأستعيد قراءة نفسي.. شعرتُ أني صفحة صفراء مطوية ومطحونة.. كان يتحدث عن وجعه الجواني، ودفعني دفعاً نحو عواصف الحنين والانكسار التي هبّت على أفكاري فجأة.. وحين غادرته كان قد حمّلني أعباءه وهمومه المخبوءة تحت مسامات جلده.

كثيراً ما تساءلت عن اللحظة التي أستطيع فيها الرحيل.. لكنني وجدت نفسي أغوص في الرمال المتحركة.. في الصحراء فقدتُ بوصلة السلامة، وتعقّدتْ مشاعري.. مثل قارب تائه في البحر كنت.. استسلمتُ للموج والتيارات وأنا أنتظر شاطئ الصدفة.. تعودتُ رؤية طيور الصحراء السوداء، كما تعودت رؤية حيواناتها الزاحفة، من الغربان ونعيق البوم في الصباحات

الحزينة حتى الخنافس والعقارب السوداء.. تفاصيل صغيرة وبرقيات خافتة موشّحة بالسواد في مملكة الغربة التي أعيشها.. في الصحراء تنعدم الرؤيا الحقيقية، وكما يرى المرء السراب ماء، يتراءى له طائر البوم أكثر جمالاً من الطاووس، والغراب أبهى وألطف من طيور الحمام.

***

رحمة

مساء أحد الأيام جاءني الأمير جفران يسألني عن الممرضة رحمة.. كان القلق واضحاً على معالم وجهه وهو يضع مسواكاً في فمه، ويضغط عليه بشفتيه مثل سيجار ثخين وطويل.. قلت له أني لم أشاهدها منذ الظهيرة.. أبدى استغرابه ودهشته، وقال متسائلاً: "الجنّية، كيف تغادر المستوصف!".

- تكون في بيت من بيوت الديرة. قلت.

ظهر عبد الله قربنا فجأة.. كان قد عاد من رحلة إلى سوريا منذ فترة من الزمن، ومنذ وصوله الديرة لازم البيت ولم يخرج منه سوى أيام معدودة.. وقد عرفت من الأقرع أنه عاد بامرأة من بلاد الشام وتزوجها على زوجته جزعة، لكنني لم أشاهدها كما لم أشاهده منذ مدة من الزمن، وكثيراً ما كنت أتحين الفرص لزيارته، غير أنني لم أجد ذريعة للدخول إلى بيته، خاصة وأنه كان يتهرب مني منذ عودته من سوريا.

بادره الأمير جفران بالسؤال: كيف البنيّة، عساها بخير!.

- الحمد لله. "مع تشديد لام لفظ الجلالة".
- زين، خلّني أشوفك الليلة في المجلس.. وإنت يا الدكتور روّح معاه.

قال الأمير ذلك وانصرف، بينما بقي عبد الله واقفاً، وعندما دعوته للدخول قال: "يا الدكتور أنا أبغاك في عوزة".

- خيراً إن شاء الله.
- الشامية تعبانه، وأنا أبغاك تعطيها دوا يعقّلها.
- نسيت أبارك لك، مبروك العروس يا عبد الله.
- الله يبارك بيك. قال، وكأنه ينتزع الكلمات من بين أسنانه انتزاعاً.. تمشيت معه حتى المستوصف، وعندما عدت بحقيبة الكشف من الداخل، بدت علامات من القلق والحيرة والتردد على وجهه، قال:
- أنا ما أبغاك تروح الحوش اللحظة.. أبغى الدوا..

قلت له بأني لا يمكن أن أعطي دواء دون أن أكشف على المريض وأُشخِّص المرض!.. لكنه أصر أن يأخذ دواء.. ولمعرفتي بالبدو وطلباتهم التي لا تنقطع.. أعطيته حبوباً لوجع الرأس، فأخذها وانصرف.. وقبل أن أغادر المستوصف فتحتْ رحمة باب غرفتها ثم أغلقته من الداخل، وكأنها تقول "أنا هنا، لكنني لا أريد أن أرى أحداً".. سألتها من خلف الباب إذا كانت ترغب بشيء قبل أن أغادر المستوصف.. فقالت على الفور: "لا"، ثم استدركت وقالت: "انتظر، انا عايزاك".

وقفتُ عند الباب.. كانت رحمة في الغرفة الداخلية تُدندن بصوت حزين، ثم فاحت رائحة الصابون، وسمعتُ دلق الماء.. خمّنت أنها تغسل وجهها، جلستُ أنتظرها في غرفة العيادة.. بعد دقائق حضرت.. كانت تلبس فستاناً زهري اللون طويلاً، تغطي

شعر رأسها ببشكير قطني.. جلست قبالتي على المقعد، وضعت ساقاً على الأخرى، وقالت بتذمر واضح:

- أشعر باختناق، تحدث معي، قل أي شيء قبل أن أنفجر.

بقيت صامتاً أنظر إليها.. أضافت: "كنت في بيت عبد الله، لكنه لم يرني".

للمرة الثانية بقيت صامتاً، أضافت: "أريد أن أنفجر، أشعر أن مارداً في صدري على وشك الانطلاق، أريد أن أبصق السر الذي في جوفي وأقول ما عندي".

- الأمير سألني عنكِ. قلت متجاهلاً كلامها.

زمّت شفتيها وقالت: "الأمير المراهق، سمعته من خلف الباب".

سألتها إذا كان يضايقها!. أجابت:

- لا، لكنه يحاول، كما يحاول مع المعلمات ونساء الديرة.. هذا النوع مكشوف، وأنا أعرف هذا الصنف من الرجال.

صمتت لحظة ثم أخذت تحدثني عن عبد الله والمرأة الشامية التي عاد بها بعد سفرته إلى سوريا.. قالت:

- تصوّر، الخنزير، يريد أن يزوّجها لوالده العجوز.

استغربتُ كلامها، هذا خبر جديد يستحق البحث في أمره، والاستماع لما تقول.. "حدثت نفسي".. الخبر كان مفاجئاً.. عدّلت من جلستي وقلت: "إذا كانت زوجته، كيف سيتزوّجها والده؟".

- زوجته!، أنت مش بالديرة يا دكتور!. قالت بسخرية.

استفزت رحمة ذاكرتي.. أضافت: "أحضرها ليزوّجها لوالده النائم على فراش الموت، والغافلة لا تعرف، وكل ما تعرفه أن عبد الله هو الذي سيتزوجها".

قلت لها: "هذا كلام غير معقول"، فقالت بأن زوجته جزعة هي التي أخبرتها بذلك.. وأضافت: إنه يسجنها في البيت، ولا يسمح لأحد أن يراها.. وعلّقت "ياما تحت السواهي دواهي، بتقول موسى بيطلع فرعون.. إنه إنسان تافه ومخادع".

دارت الأفكار في رأسي دورة كاملة، فمعلوماتي أن عبد الله تزوج هذه المرأة الشامية، وبالتالي لا تجوز لوالده.. اعتقدتُ أن رحمة تختلق حكاية لتتسلى بها، فهي ثرثارة، وممثلة بارعة، تتقن فن الضحك كما تتقن فن البكاء في آن.. وحين عرفتْ أني لا أثق بكلامها، غيّرت الموضوع وراحت تحدثني عن نفسها قبل وبعد وصولها إلى هذه القرية.. قالت:

- بعد أيام قليلة من وصولي إلى هذه القرية المنفية، رحت أجوب بيوت الديرة، وأستكشف مخابئها وأسرارها كأني عالمة آثار.. في البداية سارت حياتي على وتر واحد، أنام

حتى الظهيرة، بعد العصر ألفُّ جسدي بعباءة سوداء، وأخرج إلى مضافة الحريم، ولا أعود إلا بعد العشاء.. ثلاثة أيام فقط احتفظتُ فيها بصمتي، وبانزوائي في غرفتي داخل المستوصف، بعد ذلك بدأتُ أقوم بزيارات مفاجئة للبيوت، لم أترك بيتاً إلا زرته، كما لم أترك امرأة إلا وأقمت معها علاقة من نوع ما.. لم أترك رجلاً إلا وتحدثت معه.. فأنت تعرفني طلقة اللسان، ضحوكة، جريئة، لا أثق بالرجال ولا أخشى أحداً.

كانت رحمة صريحة تلك الليلة، في حديثها بدت مثل كتاب مفتوح.. شعرتُ للمرة الأولى أنها تثق بي.. فراحت تتحدث عن حياتها قبل أن تجد نفسها في الغربة، قالت إنها كانت مخطوبة لأحد أقاربها بعد قصة حب طويلة، وبعد أن انزلقت معه في لحظة حب محرمة، انفصل عنها.. أضافت بحزن عميق أنها كانت تتصور أي شيء غير أن يتخلى عنها، فما أن أعلنت ثمرة الحب المحرمة عن وجودها، حتى فسخ الخطوبة، وغادر موطنه إلى بلد خليجي دون كلمة وداع.

كانت تتحدث وكأنها تستعيد كل دقيقة من دقائق عمرها، قالت إنها فقدت الأمل، توقّف نبض الحياة في عروقها بعد انكسار الحب، ولم يعد لها وجود والجنين ينمو ويكبر.. أضافت:

"كنت بحاجة إلى معجزة، وبصفتي ممرضة وأعرف عدداً كبيراً من الأطباء، عرضتُ حالتي على طبيب كان يتودد لي كثيراً، أبدى استعداداً لخدمتي وقام بعملية جراحية قال إنها بسيطة، أسقط الجنين وأعادني عذراء كاملة الأنوثة.. بعد ذلك شعرتُ بفراغ قاتل، لكن الطبيب حاول جاهداً أن يقنعني بأن الحياة لحظة عابرة، والعمر دقائق معدودة، وأقنعني أن أعبّر عن رغباتي المكبوتة وأعيش الحياة.. ولم أكن أدري أنه يستغل نقاط الضعف في أعماقي، ولم أعرف إلا عندما كرّرتُ المتعة معه، وبدوره كرّر عملية الإجهاض والعذرية معي بنجاح.

مراراً وتكراراً حاولتُ أن أعود إلى جادة صوابي من جديد.. تناسيتُ كل شيء وعدت إلى الله، لكن أحداً من الأقارب لم يتركني بحالي، دائماً كانوا يعيدون تقليب المواجع، وحين وجدتُ نفسي محاصرة أمام نظراتهم، قررت أن أترك البلد وأسافر إلى بلد آخر لأنسى.

في هذه القرية كان أول من تعرّفت عليه الأمير المراهق جفران، اعتقد أني فريسة سهلة، لكنني وجدتُ فيه منبعاً للمال والثروة.. أنا لم أعد صغيرة حتى أبني قصوراً في الهواء أو على الرمال.. لم أعد أخاف منه أو من غيره.. كلهم من صنف واحد".

استفزتني رحمة بحديثها وتصرفاتها التي لم أكن أعلم عنها شيئاً.. هدّدتها بتقديم تقرير عنها إلى الوزارة، فقالت من غير

اكتراث: "وزارة الصحة لن تستطيع نقلي من مكان عملي، طالما والأمير راضٍ عني".

استطاعت رحمة أن تكسب ود كل نساء القرية، وكُنّ يعرفن أنها تجالس أزواجهن بِحُكم عملها، لكن إحداهن لم تشعر بالغيرة، وكأن القرية مسرح مفتوح للحب والعبادة.

بعد أكثر من ساعة، قامت رحمة، ارتدت ثوباً أبيض اللون وحجاباً بنفس اللون، وأخذت تُصلّي.. سألتها بسخرية واستهزاء بعد أن فرغت من صلاتها:

- كيف تقنعين نفسك، وتوّفقين بين الصلاة وما تقومين به!؟.

ضحكت وقالت: "يا دكتور دي عبادة، ودي عبادة".

رحمة، هذه الممرضة التي لا تقطع فرضاً أمام عيون النساء، دفعت النساء ليثقن بها، ويبحن بكل أسرارهن لها.. فهي ممرضة القرية وكاتمة أسرارها.. كانت صريحة في كل ما تقول وما تفعل، ومع ذلك كانت واثقة من نفسها كما قالت، فهي على استعداد أن تقاتل بيديها وأسنانها وسط الطريق العام لمن يتعرّض لشرفها، أو يمسّها بكلمة نابية.

***

غربة تحت الصفر

صباح يوم الجمعة صحوت من نومي متعباً، شعرتُ أنه إرهاق من قضى الليل ساهراً.. كنت أحس بالنعاس الذي يداهم الأرقين عند الفجر، فظللتُ لفترة مستلقياً في الفراش كخرقة بالية أتأرجح بين النوم واليقظة.

بعد طلوع الشمس جاءني الأستاذ عبد الجليل، احتسينا فنجاني قهوة، ثم قمنا بزيارة الأستاذ شريف، الذي صار دائم الشكوى والتذمر في المدرسة، يعتقد أنه يعاني من ألم ديسك في ظهره، لكن أعراض مرضه تُؤكّد أنه يعاني من أثر حصوة في كليته.

اقترح الأستاذ شريف أن نقضي يومنا خارج نطاق القرية، لم يمانع الأستاذ عبد الجليل، فانطلقنا في العاشرة نجوب الصحراء.

قادنا نور الشمس وعذرية الرمال إلى أماكن بعيدة عن القرية.. الصحراء كانت مدىً واسعاً وبحراً أصفر.. في صمت الصحراء كنت أشعر بأني أسمع دقات قلبي.. أحس بعضوٍ في جسدي دون أن أراه ينزف باستمرار.

بقينا نمشي ونرقب الشمس، نمشي ونراقب الصحراء، أحياناً كنا نتحدث، وأحياناً كنا نغرق في الصمت.. في صمتنا كنا نشعر بأصوات كثيرة تنفجر داخل رؤوسنا، نتحدث بصوت عالٍ..

الحواس تحوّلت في صمت الصحراء إلى أدوات للتعذيب.. فِكرة الغربة والمنفى كانت سيدة الموقف.

بعد أكثر من ساعتين من المشي المتواصل توقفتُ ونظرت خلفي.. بدت بيوت القرية بقعاً سوداء وسط شاشة بيضاء، انقبض قلبي، وأحسستُ بالتعب، علّلتُ السبب بعدم النوم، فمن لا ينام جيداً لا يتصرف جيداً، وغرائزه هي التي تتخذ القرارات بدلاً من عقله.

وصلنا شجرة أثل كبيرة وسط الصحراء، وحيدة وممزقة بين الرمال، جلسنا نستظل تحت أغصانها المتهالكة بلا أوراق، ورحنا نشرب الماء الذي كان في قربة قماشية بحوزتنا.

حان موعد صلاة الظهر.. قلت: اليوم الجمعة، وسيفتقدنا أهل الديرة عند الصلاة.

- نقيمها وحدنا "قال الأستاذ شريف"، على الأقل هنا لا يرانا ولا يراقبنا غير الله.
- وأنا أقيم خطبة الجمعة بشرط أن أكون الإمام. قال الأستاذ عبد الجليل، وضحك لحادثة مرّت بذاكرته..

تذكّرتُ، قبل أسبوعين، وبينما كان المطوّع خارج القرية، لم يجد أهل القرية أحداً يخطب خطبة الجمعة ويئم في المصلين.. نظر أحد الرجال إلى الأستاذ عبد الجليل وقال له: "إنت يا أستاذ.. إنت تفتهم القراية والكتابة.. قم وألقِ درس الجمعة".

صعد الأستاذ عبد الجليل على المنبر الذي يرتفع عن أرضية المسجد حوالي النصف متر، ألقى خطبة ارتجالية والرجال شبه نيام، شعرتُ أن أحداً منهم لم يفهم شيئاً مما قاله الأستاذ.. بعد انتهاء الخطبة وإقامة الآذان الثاني للصلاة، بدأ الرجال يتهامسون، يهمهمون همهمات خافتة.. قدّموا بعدها الأمير إبداح الذي لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره إماماً لهم ورفضوا الأستاذ.. وحجتهم أنه يلبس ثياب الأجانب، ويحلق لحيته.. فمن شروط الإمام أن ينظف أسنانه بمسواك، كما يطيل لحيته، ويلبس ثوباً يرتفع عن كعبه بمقدار شبر.

علّق عبد الجليل على الموقف بعد خروجنا من الصلاة ذلك اليوم قائلاً: نحن نصلي لله وليس لهم، لكن ما يغيظني أنهم يعتقدون أنهم يفهمون الدين أكثر من غيرهم.

تحدث شريف أيضاً عن حكاية تشبه تلك.. قال: قبل أيام جاءني المطوّع قائلاً "يا أستاذ شريف، إنت تعرف أنك لازم تداوم على الصلاة في المسجد، خاصة صلاة الفجر، وإنت تغيب عنها كثيراً.. أنا ما بغيت أقول للأمير عنك.. أنصحك تداوم على الصلاة عمود الدين".

أخبرته أني كنت مريضاً.. فقال: "الصلاة في المسجد تزيل عنك المرض يا أستاذ، أبغى أشوفك بنواظري الليلة عند صلاتي

المغـرب والعشـاء".. وأثنـاء حديثـه كـان شـريف يقلّـد صـوت المطوّع.

تابع شريف حكايته: "تلك الليلة قلت لنفسي سأذهب في وقت إقامة الصلاة، أدخل وأسلّم وهم قائمون حتى يراني الجميع.. ما أن وصلت عتبة المسجد حتى انقطعت الكهرباء فجأة، ولم يرني أحد.. في الصلاة وجدتُ نفسي أصلّي وأضحك.. فأنا ما جئت هذه الليلـة إلا ليرانـي المطـوّع والرجـال، لكـن لـم يشـاهدني أحـد".. وضحكنا معه وهو يبوح لنا بحكايته للمرة الأولى.

في الصحراء كنا نتحدث بصراحة عن همومنا الشخصية وعن غربتنا.. لا نخاف أحد، ولا آذان تتجسس على ما نقول.

ظهرت لنـا كومـة صـغيرة وحديثـة مـن الرمـل قـرب شـجرة الأثل.. فقـال عبـد الجليـل: "أظـن أن تحـت هـذه الكومـة حبـة فُقُـع، "الفُقُع نوع من الثمار يُشبه حَبّ البطاطا ينمو تحت التربة في الصحراء"، انـدفع نحوهـا وراح يحفـر بيديـه.. فجـأة جفـل وقفـز إلـى الـوراء، اندفعت رائحة كريهة متعفنة هاجمت أنفاسنا بعنف، ولوّثت نقاء الصـحراء.. وقفـتُ وشـريف ننظـر.. كـان هنـاك جثـة لطفـل لـم يتجـاوز شـهره الأول قـد تعفّنـت.. أعـاد عبـد الجليـل دفـن الجثـة، ووقف قائلاً:

- أنـت يـا أبـو سـعيد، الـدكتور الوحيـد فـي القريـة.. هـل تعـرف امرأة أنجبت ومات طفلها حديثاً!..

أجبته بالنفي، وقلت هؤلاء بدو، وهذه صحراء.. قاطعني:

- يبدو أن هذه ولادة محرمة.. لو كانت شرعية لدُفن في المقبرة الرئيسية!.

قلت له أن لا سبب يدعوه لإساءة الظن بأهل الصحراء لهذه الدرجة، كما ذكّرته بأن "بعض الظن إثم، والمرء يموت في الصحراء، أو يُقتل ويُدفن غريباً ولا من يسأل عنه.. حتى من الناحية الدينية، مَن يجرؤ على اتهام امرأة بشرفها!، ومن الذي يستطيع أن يُثبت الفاحشة على امرأة!؟".

كان شريف جالساً قرب جذع الشجرة مستنداً إلى ساقها مستمعاً لما نقول.. يُدخّن ويتأمل الصحراء على امتداد بصره.. نوبة الانكسار داهمته من جديد.. سألته إذا كان يشعر بألم!، أجاب بالنفي ثم تنهّد وقال بأن الألم في أعماقه، وما خرج معنا إلى الصحراء إلا لاستنشاق الهواء النقي كما يفعل المساجين في لحظات خروجهم الوجيزة من زنازينهم.. لكن هواء الصحراء لم يعد نقياً بعد هذه الروائح النفاذة.

في الصحراء راح كل منا يلاحق ذاكرته من خلال صمته العميق ووجعه الجواني.. ثمة سحابة صغيرة بيضاء في السماء تلاحق أختها الكبيرة، محاولة استباقها وحجب أشعة الشمس الحارة.. تبعثرت السحابة وتمزّقت إلى كتل صغيرة متباعدة قبل أن تصل أختها.. كنت أستطيع أن أتفهّم المشاعر التي تضرب

أعماق الأستاذين، وتُهشّم أحلامهما، غير أن الصحراء قبر لا يرحم.

أنقذنا عبد الجليل من غمرة الصمت، قال: "انظرا إلى ذاك البعير. إني أراه بعيرين متعاكسين".. وضحك متناسياً ما يفعله السراب في الصحراء..

أضاف بعد لحظة: "أتعرف يا أبا سعيد ما الفرق بين الإنسان الذي يعيش في الصحراء وبين البعير!".. ضحكت وقلت: "لا فرق، كلّنا بيعر.. نتحمل أعباء الحياة".. قال: "لا، البعير مستعد أن يصبر على الجوع والعطش، أما أنا فليس لديّ صبر"..

كنا نحمل في جعبتنا بيضاً مسلوقاً وخبزاً.. أكلنا وشربنا، ثم استلقينا ثانية تحت شجرة الأثل نتّقي حرارة الشمس الحارقة.. وغاب كل منا عبر قيلولته في أحلامه وآلامه من جديد.

بعد صلاة العصر قررنا العودة إلى الديرة.. كانت الشمس قد هجعت وخفت حرارتها، لكن رمال الصحراء لا زالت تشتعل.. سلكنا طريقاً أقرب للعودة، وأبحرنا نحو بيت من الشعر شاهدناه من بعيد.. كانت هناك امرأة تقف وتنظر إلينا، ما أن اقتربنا منها حتى قالت مُرحّبة: "يا هلا ومرحبا بالدكتور والمدرّسين.. أرحبوا"..

لم أتبين وجهها وهي ترتدي عباءتها والبرقع، لكن صوتها لم يكن غريباً عن ذاكرتي، ومع ذلك تذكرتها.. كانت قد زارتني في

المستوصف سابقاً.. وقفتْ قرب الباب ولم تدخل غرفة العيادة.. وعندما دعوتها للدخول قالت إنها تخاف أن يسقط السقف فوق رأسها.. وأضافت إنها تقيم في أطراف الديرة في بيت من الشعر، ولا تحب البيوت الطينية.. تشعر بالاختناق بين الجدران التي تمنع عنها الضوء والهواء.. وعندما دعوتها لمشاركتي غدائي في المستوصف، وكان يتكون من خيار وبعض حبات من البندورة.. نظرت إلى الطعام باستغراب ودهشة، وقالت: "لا، أنا ما آكل.. هذا تأكله البقرة، وأنا ماني بقرة".. ضحكتُ رغم كلماتها الجارحة، لكنني كنت على يقين أنها تتحدث بعفوية وسذاجة، ببراءة الأطفال وطلاقة أهل الصحراء.

تابعت البدوية ترحيبها ونحن نقف قرب بيت الشعر: "علامكو واقفين!، تفضلوا بالمَحْرم، إرحبوا.. ولد عمي راح يرد الحلال".

جلسنا على البساط المفروش داخل بيت الشعر.. سكبت لنا القهوة، وقدّمت لنا التمر.. التمر كان جافاً وصلباً.. أحضرت اللبن المخيض في صحن عميق وكبير، وطلبت منا أن نشرب ونرتوي حتى تُحضّر لنا العشاء، لكننا اعتذرنا وتابعنا رحلة العودة.

الغروب هجم على الصحراء كئيباً، بدت بوادر رياح غاضبة تحمل ذرات من الرمال تنثرها في عيوننا، تحوّل لون الصحراء الفضي إلى اللون الأصفر الشاحب الضارب إلى الاحمرار.. أسرعنا في مشيتنا حتى نصل قبل أن يحل الظلام.

عـاد الأسـتاذان شـريف وعبـد الجليـل يثرثـران عـن الغربـة والرمال المتحركة والصحراء من جديد.. رمـال العاصـفة راحت تضـرب وجوهنـا بعنـف، ونحـن نتقيهـا بأيـدينا، ونـركض باتجـاه أضواء القرية التي بدت بنفسجية اللون، خافتة متلألئة وبعيدة عن أعيننا.

بعد آذان العشاء وصلنا الديرة.. وقبل أن نفترق قال عبد الجليل بأن "ألسنتنا زلّت بنا مثل أقدامنا، فعاقبنا الله بعاصفة الصحراء".

***

جفران

استهوتني حكاية الشامية، قالت رحمة إن اسمها "ميادة".. لكنني أحببت أن أعرف حكايتها من أي شخص آخر غير رحمة.. تذكرت الأقرع.. هو الوحيد الذي يعرف دبيب النمل وهبوب الريح في القرية.. لا شك أن "عند جهينة الخبر اليقين".. توجهتُ نحو بيته، وقبل أن أصل انقطعت الكهرباء فجأة، عرفتُ أن موعد نومه قد حان، فأقنعتُ نفسي بالانتظار حتى الصباح، وليس الصبح ببعيد.

القمر كان بدراً، نوره كان يُبدّد الظلام ويبعث في النفس الطمأنينة والهدوء والراحة.. ثمة كلاب تنبح من بعيد.. قطة تموء وتتخفى في الظلام، وثمة شبح يطارد ظلاً أسود.. عباءة سوداء تخف الخطا وتتخفى بين البيوت في الظلال المعتمة، حتى لا يكشفها ضوء القمر، وظِلّ رجل يلاحقها دون أن ينبس ببنت شفة.

اقتربت العباءة من البيت الطيني الذي أقف بظلاله، شعرتُ أنها تتعمد التمهل والانتظار، حتى تبقى تحت ناظري الشبح الذي يطاردها.. فجأة قفز الرجل من خلف جدار قريب وحاول الإمساك بها.. حاولت المرأة الهروب، تعثّرت ووقعت على الأرض.. صرختْ صرخة خافتة.. تنبه الرجل الملثم لظلّي.. شاهدته يسحب مسدساً من وسط حزامه.. قفزتُ إلى ضوء القمر وقلت محاولاً

التعريف بنفسي "أنا الدكتور".. قال وهو يعيد المسدس إلى جرابه: "هو ما في بيت يظبّك في إنصاص الليالي!"..

عرفتُ الأمير جفران من صوته، ظلت المرأة متكومة على الأرض للحظات، تحركت وجلست دون أن تتفوه بكلمة واحدة.. جلس بجانبها القرفصاء وقال: "عساكِ يا بعد روحي تكوني بخير، وما يكون الدكتور الخسيس أصابك بشيء!".

لم ترد المرأة، اعتقدتُ أنها أصيبت بجرح أو كسر في ساقها.. قلت: "سليمة بإذن الله، أنا الدكتور".. وحاولتُ النظر إلى وجهها، كانت تخفيه تحت الحجاب، وتحاول أن تبقيه في الظلام طيلة الوقت، لم تتفوه بحرف.. أنفاسها فقط كانت تتلاحق متهدّجة سريعة.. قال الأمير: "سليمة سليمة، قومي معي الله يحماك، وإنت يا الدكتور روح دوّر هَلَك.. الحُرْمة ما بيها شيء".

شعرتُ أنه يصرفني بلطف.. ابتعدتُ قليلاً ووقفتُ ثانية في الظلام.. اقترب منها أكثر، لفها بعباءتها بين يديه.. خُيّل لي أنه يسافر معها نحو تلال بعيدة كطفل وجد لعبته الضالة.. لبؤة تبحث عن إليتها، استرخت وفردت ساقيها.. في الظلام شعرتُ بطعم القمر والملح والحب والفرح والطفولة يمتزج بعضها ببعض.. انحنى عليها ثانية.. حاول رفعها.. قاومت مقاومة ضعيفة.. توقف لحظة، وكأنه تذكّر أنه على قارعة الطريق.. قال: "علامك ما تقومين!.. قولي إيش بلاك؟ قومي"..

تمنّعت المرأة ولم تتكلم، ثم تركته يرفع جسدها بين يديه القويتين اللتين أحاطتا بخصرها النحيل.. وقفت، التصق بها، تراكضت أنفاسه وراح يهمس في أذنها.. انكمشت بين ذراعيه.. امتدت يديه تحتويها من جديد.. دفعت بوجهها في صدره اللاهث، شعرتُ أنها أقرب إليه في تلك اللحظة من أي وقت آخر.. أزاح البرقع وأخذ يتمعّن في وجهها في الظلام، شعرتُ أنه يقرأ خرائط الوجه والأنف والعنق، ثم ينحدر إلى مجرى الصدر.. العتمة بلغت من الكثافة حداً لم يكن بوسعه أن يميّز وجهها بوضوح، لكنه كطير جائع أخذ يلتهم بنظراته ملامح الوجه الذي لم يميزه في الظلام.. فجأة جفل، نفر كالطير المذعور وتركها مذعورة، تراجع إلى الوراء وكأن ثعباناً لسعه.. قالت: "علامك يا الأمير جفلت، أنا حليلتك حصّة.. تكون ما عرفتني إلا اللحظة والتّو".

مرّت اللحظات كالساعات وهي تقف بانكسار أمامه، قال:

- الأميرة حصّة!، شو تسوّين بالليل وسط بيوت الديرة؟.
- علامك غيّرت الموضوع!، أنا إيش أسوّي ولاّ إنت!، أنا الأميرة حصّة حليلتك، وأبغاك إذا كنت إنت ما تبغاني.. أنا أطاردك بنْصاص الليالي، وإنت تطارد بنات الديرة.. أنا أعرف كل شيء تسوّيه.. والليلة بغيت أراويك أن بنات الديرة مو أزين مني، بس إنت تبغى الحرام، الحرام ما ينفعك يا ولد عمي.. روّح لبيتك وهَلَك واروي حلالك العطشان.

كان جفران واقفاً كالمذهول، قاطعها: "زين، اسبقيني عالشق".. وأسرع باتجاه بيت الشعر المقام للضيوف على طرف القرية.. وسمعتُ صوتها تقول وهي تُشيّعه بنظراتها:

- ترى أنا أنتظرك يا بعد روحي، أنتظر الليلة من سنين.

وأنا في طريقي إلى البيت عائداً قبل الفجر بقليل.. استعادت ذاكرتي ما قالته لي زوجتي نعمة ذات ليلة عن الأميرة حصّة.. أحسستُ بالمرارة التي تختزنها وهي تتمسك بخيوط الأمل المفقود بينها وبين زوجها منذ سنوات، وجدتُ نفسي غارقاً في بحر هواها العاصف.. تراءت لي كشجرة وارفة الظلال فارعة يانعة ومثمرة، تحب أميرها بكل ما تعني هذه الكلمة.. لكن أميرها لم يصل درجة الوله الذي اجتازته الأميرة منذ زمن، ولم يعبّر يوماً عن مدى عشقه لها.. ومع ذلك كانت تتوق إليه، تتمنى الخلوة بينهما وتعبّر له عما يخالجها من شعور.. ومع أنه كان يرى في التعبير عن الحب لزوجته ضعفاً لشخصيته، إلا أنه كان يتلفظ بأحلى الكلمات عند الأخريات.. فالحب في رأيه والرجولة أوامر عند الزوجة، وكلمات عشق دافئة عند المعشوقة.

أضافت زوجتي: كثيراً ما كانت حصّة تقول لي إنها تتعذب، تشتكي وتتذمر.. ومع أن أميرها جفران كان يشعر بمعاناتها، إلا أنه كان يتلذذ بعذاباتها.. فهو يعرف مدى عشقها له، ويعرف أنها تحبه.. لكنه قتل حبها العظيم بصمته.. لم يُسمعها كلمة رقيقة أو دافئة تتمناها أي امرأة من زوجها.. كانت تحلم بكلمات حلوة،

وكثيراً ما قالت لي حصة بأن "كلمات الحب سِحْرٌ يُشعل قناديل الحياة.. والإفصاح عنها يُعطى معنى للحياة".. لكن الأمير أنكر حقها في الحياة.. كيف لا، وهو الرجل القوّام على المرأة، ومن حقه فقط أن يختار متى يتكلم ومتى يصمت.. وهي المرأة الناقصة العقل والدين كما يعتقد، ليس من حقها أن تملك حق الاختيار!.

قالت لزوجتي أيضاً أن الأمير أجهض بتصرفاته هذه جمالها وأنوثتها وحبها، ولم تعد تحس بغير الانكسار.. جسدها المشتعل بالأنوثة والسحر والحياة تحول إلى لهاث متواصل خلف السراب.. وأميرها يلهث وراء الأخريات في القصور وبين البيوت الطينية، وخلف بيوت الشعر في الصحراء.

وكما تعرف الأميرة ولَه زوجها بالنساء وتصرفاته الصبيانية، فإن الأمير أيضاً يعرف كبرياء أميرته وشموخها وهي تنادي الحب الخافت في أعماقه لتوقظه من سباته، قبل أن يخمد مع قطار العمر، الذي يركض بلا راحة أو توقف.

أضافت زوجتي: هذه الأميرة التي ضحّت بقصْرها في المدينة، لتقيم مع زوجها في بيت من الشعر قرب بيته الطيني.. تعرف أنها من أسرة روضّت الصحراء وقهرتها.. فهي أميرة الصحراء التي لا تخاف التلال البعيدة ولا الرمال المتحركة.. تدور أرجاء القرية وتستفز الرجال وتعاندهم وتتحداهم بقهر أطراف البادية

دون وجل أو خوف.. تمتطي صهوة حصانها وتسابق الريح، كما تمتطي ناقتها وتُقلع مع السحاب.

ومع أنه بنى لها بيتاً طينياً، إلا أنها فضّلت بيت الشعر، قائلة إذا كان لا بد من بيت طيني أو حجري، فليكن سقفه من القصب حتى تتمكن من رؤية النجوم والاستمتاع بجمالها في الليل.

وفي مساءاتها، "أضافت نعمة"، رغم كل ذلك، فالأميرة تلبس أجمل الثياب وتزيل عن وجهها البرقع، تُحدّق في المنظرة الأثرية التي أهداها إياها زوجها الأمير جفران ليلة عرسها، ثم راح يتصيّد غيرها من النساء.. تنظر في منظرتها إلى بشرتها السمراء، إذا كانت التجاعيد قد وصلتها، تعتز ببريق عينيها، وتفرد حاجبيها كسيفين.. وتجلس في عتمة البيت.. يومض نورها الخفيف ثم ينطفئ على جسد أنثوي تحت ثياب زاهية وثقيلة موشاة بقطع من العملة الذهبية، تُصلْصِل وقد انفك الحزام الأحمر العريض عند الخصر النحيل، ثم ينحلُّ الجسد على بساط من الصوف المصبوغ بخطوط حمراء وزرقاء متعاقبة، متدثراً بالليل الذي يثير الشهوات.. يُخيّم الصمت والأميرة تنتظر أميرها بفارغ الصبر.. ترتعش من الأعماق، تتأوه، وتتمنى لو يحضر زوجها ليدفئ لها الفراش.

***

مريم

تتابعت الأيام بخيرها وشرها مثل حبات سبحة انزلقت متراخية بين أصابع شيخ أو عابد.. انتظم الطلاب والطالبات في فصولهم بعد أن عاد المعلمون والمعلمات من إجازتهم الصيفية الأخيرة.. فعادت الحياة تدب في القرية من جديد.

مريم المعلّمة السورية، كثيراً ما كانت تقضي وقت فراغها في البيت عند زوجتي.. فهي ليست ذات الجمال الذي يتهافت عليه الرجال، لكنها جذابة.. قامتها متوسطة، ووجهها أبيض مستدير.. شعرها أشقر اللون، وطوله يصل حد الرّكبتين، غير أن حَبّ الشباب الذي يطفح علي وجهها بين وقت وآخر، كان يدفعها للخجل وعدم مخالطة النساء كثيراً..

في القرية كان والدها ساخطاً على وضعه، بسبب التغيير المفاجئ الذي طرأ على حياته وحياة ابنته فجأة.. من جنة الشام إلى جحيم الغربة.. ودائماً يلعن حظه التعس الذي رماه في صحراء عطشى.. وهذا ما دفعه ليترك ابنته وحيدة، ويغادر القرية بين فترة وأخرى بحجّة العمل في العاصمة.

مريم لم تألف حياة البادية والبدويات، عكس جميلة التي أحبت البادية وحياة البداوة.. لهذا بدت في القرية معزولة ومهملة، تشعر بالغربة والغيرة والحسد، وهي ترى البدويات يُخشخشن بأساور

الذهب في أياديهن، ويلبسن العقود والأحزمة الذهبية، بينما والدها ينتظر راتبها بفارغ الصبر نهاية كل شهر، ليأخذه منها ويصرف معظمه على حاجياته.

في قرارة نفسها كانت تتألم بيأس وصمت، ولم تكن تأمن لأحد في القرية غيري، لكن الأمن تحوّل إلى إعجاب، ثم إلى حُبّ من طرف واحد.. وكثيراً ما كنت أنهرها عن تصرفاتها ونظراتها التي تستفز زوجتي، لكنها تأخذ الأمر على شكل دعابة، وتتمادى في التقرب من زوجتي لتكسب ثقتها.

في البداية كانت تأتي بحجة أنها تحب الأطفال، ثم راحت تنتهز فرصة غياب زوجتي عن البيت، وتأتي بحجة السؤال عنها.. ذات مساء دلفت البيت ووقفت عند الباب مسبلة العينين، وكأنها تنتظر أن أدعوها إلى الداخل.. قالت إنها تشعر بالوحدة ولا ملجأ لها غير زوجتي، ثم راحت تدندن بأغنية قديمة "بحلم بيك أنا بحلم بيك".. قلت: "أرجوك يا مريم، خلينا أصدقاء، وبلاش فضائح في القرية".. كنت أريدها صديقة فقط، غير أنها كانت ترغب أن تستمتع بهذه الصداقة إلى أبعد الحدود.. حاولتُ إقناعها بأنها اختارت أن تحب الرجل الخطأ في حياتها.. لكنها لم تقتنع.

تلك الليلة سهرت مع زوجتي في البيت، وقبل منتصف الليل أخبرتنا والحزن يطفح على وجهها أن والدها قدم ليأخذ راتبها، لكنها تشاجرتْ معه، فتركها وعاد إلى عمله في المدينة.

قمتُ واستلقيتُ في غرفة مجاورة، وتركتها مع زوجتي تثرثران.. بعد منتصف الليل بقليل استأذنت مريم للعودة إلى بيتها، لكن زوجتي عرضت عليها النوم، خاصة أن الوقت تأخر، والأقرع أوقف ماتور الكهرباء.. بعد لحظة شاهدتُ زوجتي وأنا أتظاهر بالنوم تُلقي عليّ حراماً خفيفاً وتلج غرفة النوم مع مريم، ثم أغلقت الباب خلفها.

تقلّبتُ في الفراش كثيراً قبل أن أغفو، وفي أواخر الليل خلدتُ إلى النوم.

عند الفجر وأنا أتململ استعداداً للصحو، أحسستُ بجسم ثقيل على صدري، وشعرتُ بنمنمات خفيفة على وجهي وكأنها حركة أرجل عنكبوتية.. اعتدلتُ في الفراش أتحسس وجهي، شاهدتُ مريم تغفو بجانبي وقد أرخت شعرها ونثرته على وجهي واضعة راحة يدها على صدري.. قفزتُ من مكاني مذهولاً أنظر إلى الباب، كان مغلقاً، ومريم ممددة ترتدي قميص نوم زهري اللون كشف عن جزء كبير من ساقيها العاجيين، أثر حركتي المفاجئة، وانسحاب الحرام عنهما.. أذهلني المنظر كما أذهلتني المفاجأة.. تخيّلتُ زوجتي نعمة تفتح الباب وتصرخ.. انحنيت نحو مريم.. طبطبتُ على وجهها بيدي ضربات متتالية وخفيفة محاولاً إيقاظها من النوم.. كانت غارقة في أحلامها بنوم عميق، بدت وكأنها تناولت حبوباً منومة.. تململت وفتحت عينيها.. وعندما شاهدتني قفزتْ من الفراش وراحت تستر جسدها بقميص نومها.. قالت

"أين أنا!؟".. وضعتُ يدي على فمها في محاولة لإسكاتها.. أحسستُ أنها تُقبّل راحة يدي، قلت لها بهمس: "ماذا تفعلين بفراشي يا مجنونة!".. قالت وهي ترتجف: "أنا أو أنت!، كيف تجرأت وأتيت إليّ أثناء نومي!".. شعرتُ أنها تتغابى، بل ماكرة وخبيثة.. تتجاهل وتستهين بمثل هذه المواقف.. خطوتُ نحو الباب لأفتحه، فقالت: "انتظر لحظة، أنا سأخرج".. فتحتُ الباب ونظرتُ إلى الغرفة المجاورة.. كانت نعمة تغط في نوم عميق.. أسرعتْ مريم وتوجهت إلى الحمام وأقفلت الباب عليها من الداخل.. حمدتُ الله أن نعمة لم تصحُ تلك اللحظة.. عدتُ لفراشي وتظاهرتُ بالنوم من جديد.

بعد شروق الشمس فُتح الباب وظهرت زوجتي داخل الغرفة، تقول: "تِشربْ قهوة!، مريم حضّرتها قبل أن أصحو من النوم".

قمت وجلست خارج الغرفة على مقعد قديم في الحوش.. جاءت نعمة وجلست أيضاً، ثم تبعتها مريم تحمل فناجين القهوة وتبتسم.. قالت إن أجمل ما في الصحراء الهدوء ومنظر شروق الشمس.. تشاغلتُ باحتساء القهوة.. سمعنا صوت سعيد ينادي من الداخل "ماما، ماما" ، قامت نعمة وأسرعت إليه.. انتهزتُ فرصة غياب زوجتي وسألت مريم عن سبب فعلتها التي كادت أن تسبّب لنا فضيحة.. ابتسمت بخبث وغير مبالاة وقالت:

- لا أدري ماذا حصل معي!، أذكر أني قمت لأشرب ثم عدت للنوم، لكني وجدتُ نفسي في فراشك عند الفجر.. حقيقة أنا لا أعرف ماذا حصل معي!.

عادت نعمة تحمل ابنتي الصغيرة سعديه.. بينما ركض سعيد باتجاهي.. قالت مريم: "اقلب فنجانك كي أقرأ طالعك".. لم أعرها انتباهي.. نعمة أعجبتها الفكرة وقلبت الفنجانيْن.. تأملت مريم فنجاني وقالت: "كل الطرق أمامك مفتوحة، هذا فأل حسن.. في طالعك نافذة كبيرة، إنها طاقة الفرج بعد الشدة". صمتت قليلاً ثم أضافت وهي تنظر إلى حواف الفنجان: "في حياتك امرأة تحبك وتغار عليك، لكنك لا تشعر بوجودها".

ابتسمت زوجتي وقالت: "سامع!، امرأة تحبك وأنت لا تشعر بوجودها، متى ستعرف أني أحبك!، في آخر العمر أو بعد ما أموت!".. وأخذت تدندن مقطعاً من أغنية قارئة الفنجان "بحياتك يا ولدي امرأة سبحان المعبود".. فشاركتها مريم الغناء بخبث وطغى صوتها على صوت نعمة.. "والشعر الغجري المجنون يسافر كل الدنيا".

شعرتُ أن مريم تُذكّرني بشعرها الغجري الطويل وجدائلها التي تصل حد الركبة.. تجاهلتُ الموقف ورحت أتمشى مع سعيد في حوش البيت.. حملت نعمة صينية القهوة وعادت إلى الداخل، فسكتت مريم عن الغناء وقامت تُحرك ذراعيها وتنظر إلى

النباتات التي قمت بزراعتها في المدة الأخيرة في حديقة المنزل.. قلت أستفزها:

- لماذا توقّفتِ عن الغناء!، ألا تعرفين نهاية الأغنية!.
- لقد تركتُ النهايات لك وحدك. قالت

أحببتُ أن أغيظها، ورحتُ أدندن في نهاية الأغنية "وسترجع يوماً يا ولدي مهزوماً مكسور الوجدان، وستعرف بعد رحيل العمر، أنك كنت تطارد خيط دخان".

أقبلت زوجتي نحونا، اقتربت وتعمّدت الوقوف بيني وبين مريم.. خيّم الصمت على المكان، أحسستُ أن نعمة تعرف كل شيء، لكني تجاهلتُ الفكرة التي داهمتني فجأة، وتشاغلتُ بريّ مزروعات الحديقة.

***

قلت لها مراراً وتكراراً: "لِنبق أصدقاء يا مريم، لعل هذه الصداقة تُمكّننا من استمرارية الحياة في الغربة".

مريم كانت ترفض سماع العقل، رفضتني كصديق، وأرادت أن أكون حبيباً.. قالت بالفم الملآن غير آبهة لمشاعر زوجتي بأنها تحبني، واعترفت أنها تصرفت في البداية كامرأة ضائعة، مراهقة مع أنها لم تعد كذلك.. وأضافت: "اعتبرني عشيقة، خليلة، مجنونة إن شئت، لكنني لن أتخلى عنك، ولا أطلب منك سوى أن تبقى كما أنت".

شفتاها وهي تتكلم كانتا ترتجفان وتفتران عن ظل حزن عميق، ووجنتاها تنضحان باحمرار النضرة والخجل.. قلت لها:

- لا أدري كيف تسمحين لنفسك بهذه الحماقة، إن أمرك غريب..

قاطعتني: أنت لا تعرف شعور المرأة التي تحب، ثم تُفاجأ بأن الحبيب تخلّى أو ينوي التخلي عنها.. الموت عليها أهون من الحياة.

- أنتِ مجنونة ومستهترة، ولا فائدة ترجى مني، أو من هذا الحب الذي أخذتِ تبني عليه آمالاً وأحلاماً.. فقالت إنها مستعدة أن تعيش معي ولو في بيت من القصب وسعف النخيل وسط الصحراء.

مريم مجنونة حقاً.. قرّرتُ مقاطعتها، وطلبت من زوجتي مقاطعتها أيضاً، غير أنني لم أقل لها كل الحقيقة.

نعمة أنكرت أقوالي وقالت: "مريم صديقة مخلصة، لكنك تتوّهم كثيراً وتشكّ في كل النساء".. وهذا ما دفعني لمواجهة مريم في اليوم التالي، والطلب منها عدم القدوم إلى البيت.

كطفل مذعور وقفت مريم تبكي، بدت مثل ورقة خريفية صفراء.. تجنّبتُ النظر إلى عينيها أو إلى وجهها مباشرة.. فقالت بلوعة المكلوم ونبرات صوتها ترتجف:

- كنت أتمنى أن تكون زوجي، لكن يظهر أني أحرث في الصخر، ومع ذلك لن أقطع الرجاء منك..

وأخذت تبكي بمرارة وألم، بدا الحزن واضحاً على ملامح وجهها، أحسستُ أنها تحبني فعلاً.. لكني حزمت أمري وتركتها على قارعة الطريق تتخبّط بمصيرها وحيدة.. اختفيتُ عن وجهها، وتهرّبت منها.. وبدورها لم تعد تأتي إلى البيت أو العيادة.

***

الأقرع وقوارير الماء

منذ أكثر من أسبوعين غادر الأستاذ شريف القرية لعلاج زوجته في المدينة أثر ورم في عينها.. لكن عودته تأخرت، وأشيع في القرية أنه دخل المستشفى بعد أن عالج زوجته، وقد وافته المنية أثناء العلاج.. لم تتأكد الأخبار، قيل أنه ما زال قيد العلاج، كما قيل أنه غادر البلاد عائداً إلى وطنه فجأة، لكن أحداً لم يجزم صحة أو نفي أي خبر.

توجّهتُ إلى الأمير جفران أستقصي الأخبار منه.. كان واقفاً مع الأقرع يتحدثان، قال: "جيت والله جابك، أنا أبغى رفيق درب، هيا اركب معي".

سألته عن شريف، فقال: "اركب وانا أعلّمك في الطريق".

كان على عجلة من أمره، والساعة تقارب من العاشرة صباحاً.. صعدتُ بجانبه في سيارة المرسيدس السوداء اللون الحديثة، بينما ركب الأقرع في المقعد الخلفي.

أدار محرك السيارة على عجل، وراح يقود سيارته بسرعة كبيرة، ينهب الطريق الترابي والغبار يتطاير من جانبي السيارة ومن خلفها، يلاحقنا ويحجب مساحة الأرض التي نخلّفها وراءنا.

بعد أكثر من ساعتين وصلنا الشارع المعبّد، شد حزام مقعده وراح ينهب الشارع بسرعة تزيد عن المائة وخمسين كيلو متر

في الساعة، طلبتُ منه أن يخفف السرعة، تجاهل طلبي وزاد من سرعته، انزويت في مقعدي واستسلمتُ لقدر الله وقيادة الأمير.

عند المساء وصلنا المدينة.. قاد السيارة في شوارع عريضة وواسعة وسط بنايات ذات طوابق عالية وفخمة.. عند مدخل أحد القصور المزدان بأشجار النخيل من كل جوانبه، والمحاط بأسوار عالية، أوقفنا حراس المبنى.. تحدّث الأمير معهم بلهجته الآمرة فتركوه يدخل، عند الباب الداخلي الكبير توقف دون أن يُطفئ محرك السيارة، ترجّل منها.. لبس عباءته وأصلح هندامه، وقال للأقرع آمراً: "خلّك بالسيارة مع الدكتور، واركنها على جنب".

في الساحة الكبيرة التي تضم أحدث أنواع السيارات الدبلوماسية الحديثة الصنع، جلستُ والأقرع في سيارة الأمير ننتظر أوبته.. قال الأقرع: "هذه الأمارة، والأمير جفران يبغى يقابل أمير المنطقة".. سألته عن السبب!، أجاب إنه لا يعرف شيئاً.

طال غياب الأمير.. سطعت الأنوار العالية وحولت ليل الأمارة إلى نهار مضيء.. أخذ العرق يتفصّد من أجسادنا ويبلل ثيابنا بفعل الجو الحار والرطوبة العالية.. شعرتُ أني في محرقة، ورائحة النفط النتنة تثير القيء في نفسي.. نظر الأقرع إلى وجهي وقال:

- ترى يا دكتور أنا ما أقدر أغادر السيارة.. روح إنت دوّر لنا شيء بارد نشربه.

كنت بحاجة إلى شيء بارد يطفئ ظمأي.. فتحتُ باب السيارة ودرت في الساحة الواسعة أتمشى.. استوقفني أحد الحراس وسألني عن سبب تجوالي.. أخبرته أني أبحث عن بقالة.. نظر إلى وجهي وقال: "الدكاكين في المدينة وليست في الأمارة".

عدت إلى الأقرع خاوي اليدين وأخبرته بما حصل معي، فقال: "يكون في صندوق السيارة الخلفي ثلاجة وماء بارد"، وضغط بيده على مفتاح بجانب مقعد السائق، فانفتح باب السيارة الخلفي.. في الصندوق شاهدتُ ثلاجة صغيرة وبداخلها بعض زجاجات الخمر من الحجم الكبير، وشيشة.. أغلقت باب السيارة الخلفي بسرعة ونظرتُ يميناً ويساراً حتى أتأكد أن أحداً لم يرني تلك اللحظة.. نظرتُ إلى الأضواء العالية.. من على بعد رأيت لهباً يرتفع إلى عنان السماء من مداخن طويلة وعالية.. رؤوسها كانت تحترق وتقذف النيران عشرات الأمتار إلى السماء.. شعرتُ أنها تصل إلى طبقة الأوزون وتحاول اختراقها.. تساءلت في قرارة نفسي إذا كانت هذه المداخن هي التي تلوث الكرة الأرضية وتقضي على الحياة!.. وصعدتُ إلى السيارة وكأني لم أرَ شيئاً.. قال الأقرع: "هداك الله، المويه بالبرّاد".

قلت له أن يترجل من السيارة ويشرب إذا كان عطشاناً.. فقال: "زين، تعال ويّاي".. ترجّل وفتح الصندوق، لم يُبْدِ أي تعجب أو

استغراب، وكأنه وضع كل شيء بيده.. قال: "العياذ بالله"، وأغلق الباب.

وقفنا جانب السيارة.. مرّ أحد الحراس من جانبنا يحمل بطيختين كبيرتين بين يديه.. فقال له الأقرع: "احترس يا الأخو، الدنيا حر والحبحب ثقيل".

وقف الحارس ينظر إلينا، خمّنتُ أنه ينظر إلى ثيابنا البدوية البيضاء التي كانت ترشح عرقاً، وتلتصق بأجسادنا.. قال:

- خذوا هالحَبّة، رطّبوا بيها.

تناول الأقرع البطيخة من الحارس وقال: "مشكور يا الأخو".

جلسنا القرفصاء بجانب السيارة والبطيخة بيننا.. اكتشفنا أننا لا نملك سكيناً أو أية أداة حادة نقطع بها البطيخة.. ضحكنا معاً على خيبتنا.. ظهر أحد الحراس فجأة وسلّم علينا بقبلات حارة وكأنه يعرفنا منذ زمن بعيد.. سألته إذا كان يحمل مدية أو خنجراً ودعوته للجلوس معنا، لم يمانع، سألنا عن حالنا وعن حال أميرنا، وقال إنه منذ زمن طويل لم يره، وإنه في شوق إليه، ثم تناول خنجراً من وسط حزامه، وأخذ يقطع البطيخة ويأكل حتى أتى على آخرها، وكلانا ننظر إليه بذهول.. بعد دقائق وقف وحمد الله على نعمته وقال: "أكرمكم الله، أراكم بخير، مشكورين يا أولاد الحلال"، ثم سلّم علينا بيده وبقبلاته، وغادر المكان.. سألتُ الأقرع: "منذ متى تعرف هذا الحارس؟".

نظر إليّ باستغراب ودهشة وقال: "تعتقد يا دكتور أني أعرف كل أصحابك!".. قلت له أني لا أعرفه واعتقدتُ أنه صاحبك.

ضرب الأقرع كفاً بكف وأخذ يضحك حتى كاد يقع على الأرض، وقال: "والله زين، إنت تظنه صاحبي وانا اعتقدتُ إنه صاحبك.. وما بين صاحبي وصاحبك ما ذقنا طعم الحبحب".

تأخرت عودة الأمير، تذكّرت أني لم أخبر زوجتي عن رحلتي المفاجئة، قلت: "ما أظن الليلة نرجع للديرة".

- حنّا مع الأمير، إيش ورانا!.. خايفين على التجارة ولاّ على الأمارة تطير منّا. قال الأقرع.

لا أدري ما الذي أحضر شريف لذاكرتي تلك اللحظة.. قلت:

- يكون أمر المقابلة متعلّق بما سمعناه عن شريف!.
- حِنّا بواد وإنت بواد يا دكتور، طال الله عمرك، الأستاذ شريف بوداعة الله.

لم أصدق ما قاله الأقرع، قلت إن شريف ذهب إلى المدينة ليعالج عين زوجته التي تورّمت أثر لسعة حشرة.. فقال:

- هداك الله يا دكتور، الموت علينا حق، بس ما أدري كيف مات!.

الصدمة كانت مفاجئة وقاتلة في نفس الوقت.. نسيتُ الجو الخانق وجهنم الحمراء التي تشوي هذا الجزء من الكرة الأرضية، نسيت كل شيء، وفقط تأكدتُ من موت شريف الذي

مات غريباً في بلاد التيه والملح والرمال، يحمل غربته ويلف منفاه كفناً على جسده.. كان يفكر بالاستقالة، لكن الموت عاجله قبل أن يحقق رغبته ويصل مبتغاه.. شريف حقّق أمنيته اليتيمة بالهروب من الصحراء.

ظهر الأمير أمامنا فجأة، وقطع حبل أفكاري، كان باشاً وملامح الفرح بادية على وجهه.. أسرع الأقرع وفتح له باب السيارة.. قال الأمير مخاطباً الأقرع: "أنت السواق يا ولد، قد السيارة حتى نخرج من الأمارة".

ركب الأمير في المقعد المحاذي لمقعد السائق، وركبتُ في المقعد الخلفي، بينما تولى الأقرع القيادة..

الصمت كان يلفني ويُغلّف المنطقة الصحراوية التي بدأنا نتعمّق باتجاهها، أنوار السيارات الشاحنة التي تقابلنا كانت تحجب عنا الرؤية وتُشتّت أنظارنا.. استسلمتُ لنوبة نعاس قوية، وقبل أن أغفو في مقعدي، طلب الأمير من الأقرع التوقف على جانب الطريق.

ألقى الأمير عباءته على المقعد، وترجل من السيارة.. وقف وراح يتمطى ويُحرك ذراعيه يميناً وشمالاً.. هبّت نسمات هواء باردة وخفيفة رطّبت من حرارة الجو.. قال: "أبغى تعميرة راس". "التعميرة تعني التدخين بالشيشة". واستلقى فارداً جسده على الرمال، طالباً مني الجلوس والراحة جانبه.

أسرع الأقرع وأحضر الشيشة من صندوق السيارة الخلفي، ثم ملأها بالجراك "الجراك نوع من أنواع التمباك "من علبة تشبه علبة الحلويات الكبيرة.. أحضر بعض الفحم أيضاً وأشعل فيه النار..

- أعطني قارورة باردة. قال الأمير للأقرع.

بحركة آلية قام الأقرع وأحضر زجاجة خمر من صندوق السيارة الخلفي وكأساً زجاجياً.. أضاف الأمير:

- إنت ما تفتهم يا ولد، الدكتور ما يبغى يعمِّر راسه.
- أنا تعبان يا الأمير وما أبغى أشرب شيء. قلت معتذراً.

كان الأقرع قد أحضر كأساً آخر، فتح الزجاجة وبدأ يصب في الكأسين.. قال الأمير:

- هداك الله، أنا أبغاك تشرب معي وتونّسني هذي الليلة، ولاّ إنت تحب تظل في الصحراء في انصاص الليالي!.

كان الأمير جاداً في تهديده، رغم ابتسامته الماكرة، أصرّ على أن أشاركه الشراب أو يتركني في الصحراء، ثم طلب مني أن أشرب الكأس دفعة واحدة.. شعرتُ باحتراق في جوفي وأحشائي، قال: "ما عليك، جرعة ثانية وتنسى كل شيء".

غافلته وسكبتُ ما تبقّى في الكأس على الرمال وتظاهرتُ أني شربته.. أضاف: "أبوك يا الأقرع، وين الراس!؟".

أسرع الأقرع وأحضر الشيشة، ناول الأمير الليّ الذي يزيد طوله على المترين.. "الليّ: نربيش أرجيلة الجراك".. سحب الأمير

نفساً عميقاً وقال: "نار يا ولد".. تناول الأقرع بعض الجمرات بين أصابعه ووضعها على رأس الشيشة، وأخذ ينفخ عليها.. سحب الأمير نفساً عميقاً آخر، ونفخ في الهواء خطاً طويلاً من الدخان، والأقرع يقف قربنا ينتظر أوامر الأمير.. نظر إليه الأمير وقال: "زين، استرح".

جلس الأقرع القرفصاء، صب كأساً ثانياً للأمير، وأخذ يبحث عن كأسي، قلت بأني اكتفيت، لكن الأمير أصرّ على أن يملأ لي كأساً آخر.

كانت الساعة تقترب من الثانية بعد منتصف الليل عندما بدأ القمر يشق طريقه نحو الأفق، وثلاثتنا نفترش الرمال ونتدثر بالنجوم المتلألئة ونغتسل بضوء القمر.. الأمير يثقل لسانه ويمط بكلمات يُعبّر بها عما يجول في نفسه، قال "زمانها الشاحنة وصلت المدينة".. سألته عما يتحدث، فقال بثقة، ولكن ببطء:

- الملاعين، حجزوا السيارة المحمّلة بالقوارير.. غير إن أميرنا طال الله عمره هاتفهم وأطلقوا سراح السواق والسيارة.. زمانها وصلتْ.

سطا الشراب على عقل الأمير وجسده، تحدث عن نفسه وعن نساء الديرة دون أن يذكر أسماءهن.. تحدث أيضاً عن أمريكا ولندن وبنات باريس.. وعن عطور وهدايا بكلمات متقاطعة بدت جُمَلاً غير مترابطة، وحين وقف ترنّح وكاد يسقط، فأمسك به

الأقرع وقاده إلى السيارة، ثم وضع الشيشة في الصندوق الخلفي، وقاد بنا السيارة باتجاه القرية.

كانت السماء صافية، مزروعة بنجوم براقة، بدت مثل لوحة ملوّنة رائعة الجمال، أبدية الأفق والزمن.. من بعيد ظهرت أنوار القرية تتلألأ خافتة، وأخذ ظلام الليل يندثر أمام النور الذي يقترب من الفجر، الأمير بدا نائماً على مقعده الخلفي.. قلت للأقرع: "ننتظر الصباح حتى يصحو الأمير وندخل القرية".. رفع الأمير رأسه وقال: "إنت مخبول يا الدكتور، مش صاحي!".. أجبت بالنفي.. قال: "عاد ليش ننتظر الصباح، بس أبغى أبول".

أوقف الأقرع السيارة وسط الطريق الرملي، ترجّل الأمير ووقف، رفع ثوبه ووضع طرفه بين أسنانه، وأخذ يبول ويغني أغنية بدوية لم أفهم كلماتها.. همس الأقرع بصوت لا يكاد يُسمع: "حرس الحدود ألقوا القبض على سيارة تابعة للأمير يعتقدون أنها تحمل صناديق من الخمر واحتجزوها مع السائق، لكن الأمير أقنع أمير المنطقة أن الشاحنة لا تحمل غير صناديق بيها قوارير مياه صحية ومشروبات روحية بلا كحول، فأفرج عنها وعن السائق".. ونصحني أن لا أبوح لأحد مما سمعتُ أو شاهدت هذه الليلة بأمر من الأمير.

عـاد الأميـر يتـرنح ووقـع علـى الأرض قـرب بـاب السـيارة.. أسرع الأقرع وساعده على الوقوف، وأجلسه على المقعد الأمامي داخل السيارة.

عند مضافة القرية فوجئنا بعدد من الرجال ينتظرون الأمير، ويتجمّعون للسلام عليه.. ما أن ترجلتُ من السيارة حتى قادها الأقرع بسرعة عالية مُخلّفاً وراءه الرجال والغبار، وسمعته يقول للرجال: "الأمير جاه خبر عاجل، ويبغى يروح الديرة الثانية، ونعود قبل الظهر بعون الله".

الأقرع كان يتمتع بذكاء حاد وفطنة سريعة التجاوب.. حنكته البدوية وخبرته مع الأمراء علّمته كل شيء.. عاد واختفى في الصحراء مدعياً ما قاله حتى يصحو الأمير ويعود لوعيه.

كان موعد صلاة الفجر قد حل.. توجّه الرجال إلى المسجد، وحين وقفتُ أصلي في الصف الخلفي، حاولتُ بقدر استطاعتي السيطرة على نفسي حتى لا أقع أثناء الصلاة.

***

أرملة شريف

بعد ثلاثة أيام من غياب الأمير جفران عن الديرة، عاد مع الأقرع وبرفقتهما أرملة المرحوم شريف.. كانت شاحبة الوجه منهوكة القوى، وضمادة بيضاء تحجب عينها اليمنى عن الرؤية.. ما أن شاهدتني حتى أخذت بالبكاء.. فقد عادت وحيدة وأرملة.. اصطحبتها إلى بيتي.. وسرعان ما انتشر الخبر في القرية، حضر الأستاذ عبد الجليل وزوجته، كما جاءت جميلة ومريم مع والديهما، بالإضافة إلى الممرضة رحمة.

بكت زوجة شريف طويلاً بألم وحسرة ومرارة، وبكى الجميع على أنفسهم وغربتهم، وعلى فراق زميل المنفى المرحوم شريف.. توافدت الأميرات والنسوة إلى البيت أيضاً.. وحين رأت الأميرة المزيونة الجميع يبكون، قالت: "البكاء على الميت حرام، فالله سبحانه وتعالى استردّ عطيّته، ولا اعتراض على حكمه".

الأستاذ عبد الجليل لم يستطع كبت عواطفه، أجهش بالبكاء بلا استحياء، وكاد يقصف أصابعه يأساً وألماً ومرارة.. كان يبكي ويتيه في البراري طوال وقته، ملامحه الحزينة كانت تُعبّر عن مدى ما يمكن أن يصل إليه المرء من غربة وضياع..

سرت عدوى البكاء بصوتٍ عالٍ، انتقلت إلى نفسي وإلى بقية الرجال.. داريت دموعي وارتباكي.. أحسستُ بالغربة الحقيقية..

الغُربة قهر ووجع وموت.. حزن وألم وتحطيم معنويات.. ضربات غير متوقعة، جحيم وحيرة، وجع جواني لا يُحتمل.

شعرتُ بغشاوة في عينيّ حجبت عني الرؤية، وزوجة المرحوم تتحدث عن مأساتها بألم، تقول أن الأطباء أجروا عملية بسيطة وناجحة في عينها، وفي اليوم الذي قرر فيه شريف العودة إلى القرية.. انتابته موجة من الألم، فعرض نفسه على طبيب المستشفى.. وبعد التحاليل وصور الأشعة أخبروه أن هناك حصوة كبيرة في كليته اليمنى، وإنه بحاجة لعملية جراحية عاجلة.. استسلم لقدره ودخل غرفة العمليات.. لكنه لم يخرج منها.

قام المستشفى بتحرير شهادة وفاة، وخيّروها بين دفنه في العاصمة أو نقل جثمانه إلى وطنه.. تفكيرها كان معطّلاً عن العمل.. استشارت بعض المدرسين الذين حضروا إلى المستشفى بعد سماعهم الخبر، فأشاروا عليها بنقل الجثمان إلى مسقط رأسه، ثم استضافوها عندهم لأيام عدة، حتى يجمعوا مبلغاً من المال يُغطّي نفقات النقل.. بعد أيام جاءها الأمير جفران وأعادها إلى القرية لتأخذ بقية أغراضها وتعود لمرافقة الجثمان إلى سوريا.

تلك الليلة استدعاني الأمير وقال:

- ترى يا الدكتور أرملة المرحوم أمانة في أعناقنا.. إذا تبغى تظل بديرتنا حيّاها الله.. ترى نرحّب بيها طول العمر، وما يطولها ضيم ولا مكروه بإذن الله.

أخبرته أنها تستعد للرحيل صباحاً.. فقال: "أعلم إللي تقوله زين.. البنية قالت لي كل شيء، بس إنت خبّرها باللي أقوله".

كان عبد الجليل قد اتفق مع المغتربين على جمع مبلغ من المال وتقديمه لها، وقدّمت أنا أيضاً ما يمليه عليّ الواجب.. وفي صباح اليوم التالي، وقبل أن تنكب أرملة المرحوم المغتربين برحيلها المفاجئ.. حضر الأمير إلى بيتي، وطلب مقابلة أرملة المرحوم.. دلفت بخجل شديد وحزن المكلوم وجلست أمامه تمسح دموعها المدرارة.. قال:

- العمر إلك يا بنية.. الله يرحم الأستاذ شريف.. كان زين وما قصّر مع أهل الديرة.

بدأت أرملة المرحوم بالبكاء من جديد.. انهالت الدموع على وجنتيها هذه المرة كشلال.. أضاف الأمير: "ترى الديرة ديرتك، وحِنّا هلِك بعد الله، وانا جاي أطيّب خاطرك".. ثم مدّ يده إلى جيبه وأخرج مبلغاً كبيراً من المال، وأضاف: "هذا المبلغ عطيّة ما أبغى من وراه جزيّه.. وإن شاء الله نكون قمنا بالواجب".

كانت تبكي بحرقة، ولم ترفع رأسها لترى ما بيد الأمير.. قلت: "مشكور يا الأمير، والله ما قصّرت"، وتناولتُ المبلغ من يده

وأعطيته لها، وهي تُجفّف دموعها بمنديل ورقي.. وقف الأمير وقال: "السيارة تحت تصرفكم للعاصمة.. الله يرحم الأستاذ، أشوفكم على خير إن شاء الله". وغادر البيت كما دخله.

كان الأقرع ينتظرنا قرب السيارة التي أوقفها قرب الباب، وكانت أرملة شريف قد جمعت أغراضها في حقيبتين كبيرتين، قمت وعبد الجليل بوضعهما في صندوق السيارة الخلفي.. وقبل أن تهم بالركوب اندفعت النساء تعانقها وتعزيها، وهي تبكي على مصابها الذي جعلها بين ليلة وضحاها "أرملة".

المصيبة كانت أكبر من كل الكلمات.

رافقتُها حتى العاصمة، هناك وجدتُ المغتربين قد جمعوا مبلغاً من المال يكفي لشراء تذكرتي سفر، ومبلغاً آخر لها لتتصرف به بعد عودتها إلى وطنها، كما حددوا موعد السفر أيضاً.. كان المغتربين بكل جالياتهم العربية متوحدين في غربتهم، جمعتهم المصيبة والهمّ المشترك رغم تباعد أماكن عملهم.. أودعتُ عندهم أرملة المرحوم بانتظار موعد السفر، وعدتُ والأقرع ننهب الأرض باتجاه الصحراء، نجترّ ذكرياتنا مع المرحوم، ونجر أذيال الخيبة.

يوم سفر شريف لعلاج زوجته، كان وجهه رائقاً ومزاجه هادئاً.. صافحنا واحداً واحداً قبل رحيله.. ورغم ابتسامته العريضة إلا أني أحسستُ أنه كان يتحدث بصوت حزين

ومشروخ.. لم أفهم سبب عاطفته المفاجئة تلك اللحظة.. أما بعد رحيله المفاجئ، فقد أحسست إحساساً عميقاً أنه كان يُودّعنا الوداع الأخير.. لكني طردتُ الفكرة من ذاكرتي قبل أن تستفحل وتتّسع وتأخذ مكاناً أكبر من حجمها.

عندما جاء خبر نعيه.. لم أصدق أن شريف قد مات، رغم أن كل الأحداث تؤكّد موته.. كنت أخاله وأنا في طريقي وقد استيقظ وعاد من الموت.. شعرتُ أن الطائر الذي يقطن قلبي يتململ وكأنه في نزاعه الأخير يحتضر.. وإلا فما معنى أن أخص المرحوم وحده بذكرياتي القليلة معه!، رغم أنه مضى إلى براريه الحقيقية.. أهكذا يكون الموت!.. رحلة في عمق الصحراء الحقيقية بين الرمل والريح.. من كان يُصدّق أن الأمر سينتهي به في لحظة مفاجئة إلى الموت!، وأن نعيش بعده متوحشين!.

كان إحساسه بالأشياء مرهفاً وحاداً وهو يتمشى في الصحراء التي لا نهاية لرمالها، لا نهاية لصمتها وكآبتها.. الصحراء صفراء كالحة، والفضاء بلون أصفر فاقع لا نجم فيه ولا شمس أو قمر، وليس في الرمال آثار أقدام.. لا شيء سوى الرياح التي تعبث بكثبانها كأفاعي لا مرئية.. لا صوت سوى همهمات الريح التي تندبه ندباً أبدياً على وتيرة واحدة.

تراءت لي شجرة الأثل الصحراوية وشريف يسند ظهره إليها.. كلماته ما زالت تدوي في أعماقي، حركاته، أنفاسه المتلاحقة

قرب جذعها.. شعرتُ أني عشت معه ألف عام في سأم الغربة وتوهان الصحراء.. وما زال يتراءى لي وهو يغمض عينيه وكأنه في غيبوبة، يزفر تلك الزفرة الحرّى، ويبتلع ريقه مع شفرات حادة، وتتحرك تفاحة آدم في رقبته بصعوبة.

كان يتحدى عقم الأشياء ويُصر على الحقيقة، يُبحر مع الليل والزوابع، يُحطم جدران العجز والاستسلام وينطلق خارج أسوار الصحراء.. يكافح عدواً يجهله وهو جزء منه وفيه.. ورغم صلابته فقد كان يائساً من الوضع، حزيناً على ما آلت إليه الأمور.

كان يتنبأ بموته ويستعجله، يتخيل التابوت الذي يوضع فيه والكفن الأبيض الذي يلفه، وزوجته تعود وحيدة تُجرجر مرساتها ومأساتها، تائهة في المدينة كما في الصحراء.. تعود مخفورة بين الليل والخريف، معلنة خبر موته بصمت عميق وصرخة مخنوقة.. الجثمان، الألم والدموع، كلها أشياء تؤكد خبر موته.

في رحلة العودة مع الأقرع استحلتُ إلى بئر مهجور، حاولت الصراخ، لكن من يسمع صرختي!، السماء، الرمال، الرياح، حتى الصحراء لا تسمع، ومع ذلك فكل هذه الأشياء تؤكّد حقيقة الموت.. وإن شريف قد مات.

***

كابوس مريم

بعد أكثر من شهر التقيتُ بوالد مريم بعد أن عاد من المدينة، قال إن ابنته مريضة منذ مدة، ولا أحد يسأل عنها، ودعاني لرؤيتها معاتباً: "كنت أعتقد أن الغريب للغريب قريب!".

في البيت كانت مريم مستلقية على السرير شبه نائمة.. ما أن شاهدتني حتى أخذت تتوجع وتبكي وتنظر إليّ بعينين نصف مغمضتين.. قالت أن بطنها يؤلمها، وتشعر بتمزّق في أمعائها، كما تشعر بدوار في رأسها، ولا تقو على الوقوف.. قلت إنها حالة برد شديدة، فبرد الصحراء يلسع ويقرص دون أن يشعر به المرء.. وعندما قام والدها يعد الشاي، تأوّهت وقالت: "كم أنت قاسٍ وظالم".. قلت لها أن تنسى ما يدور بخلدها، وتخبرني عما يؤلمها فعلاً، قالت بعد تردد:

- أشعر بقيء وغثيان، إنها فعلتك الخبيثة، ولا أدري ماذا أفعل!.

ضحكتُ.. كنت على يقين أني لم أخطئ معها.. أضافت: "أحلم بالعيش معك في صحراء واسعة ليس لها حدود، صحراء لا أحد فيها سوانا، لا ظل ولا سراب، حتى يستطيع كل منا النظر إلى الآخر بصفاء مطلق".

- المرض جعلك شاعرة.

- الحب جعلني شاعرة، لقد عثرت على حبي الشارد بين جنباتك وبين يديك.. كنت أعرف أنك ستعود، فأنت حبي الوحيد وستبقى حبيبي.
- أنت مجنونة فعلاً يا مريم، ما هذا الهراء!.. عودي لعقلك..
- تصرفاتك هي التي دفعتني للجنون، جعلت مني تافهة أيضاً، لكني سأعمل على استمرار علاقتنا ما دمنا معاً، خاصة وأنا أشعر أني استطعت النيل منك.
- لن تنالي مني أبداً، وأنت تعرفين ذلك.
- كيف لا!، "قالت بحزم وهي تشير إلى بطنها"، وهل هذا ابن حرام!؟.. إنه الشاهد الوحيد على ما حدث بيننا تلك الليلة.
- أنتِ مجنونة، والله مجنونة. قلت ذلك ووقفت.
- لا يهمني أن أموت بعد الذي حصل. قالت ببرودة أعصاب.

ولج والدها الغرفة يحمل إبريق الشاي وقطع استرسالها.. عادت مريم لتأوهاتها وتوجّعها.. استأذنتُ للخروج.. قال: "اقعد اشرب الشاي".. اعتذرت وقلت بأني سأجلب لها الدواء، وغادرت المنزل.

في الطريق أصبتُ بغثيان، بللّني عرق غزير كما لو كنت في حمام من البخار.. تمنيتُ أن أفقد ذاكرتي أو تنشق الأرض وتبتلعني لأنسى ما سمعت، وأنسى كل ما كان يدور داخل مؤخرة رأسي.

"ماذا فعلت هذه المجنونة بنفسها!.. وهل حقاً مارست الخطيئة!، أم أنها كاذبة، وتتوّهم أشياء تتمناها ولا تعرف عواقبها.. لكنها أكدت لي، والمرأة تعرف نفسها أحياناً أكثر من طبيب.. ماذا لو كانت حامل فعلاً!، أي مصير وأي عار سيلحق بالوافدين!.. ماذا لو ألصقت التهمة بي، وأنا بريء منها براءة الذئب من دم يوسف!.. الحكم الإسلامي هنا لا يعرف أنني برئ طالما وهي تعترف بلسانها.. الرجم، آه، سأموت رجماً بالحجارة دون أن أقترف ذنباً.. وستنال عقابها أيضاً.. مجنونة مريم ورب الكعبة.. إنها غبية لا تعرف قوانين هذا البلد الذي يُطبّق شريعة الإسلام.. تعتقد أنها لو باحت لوالدها بما في نفسها، سيهددني إن لم أتزوجها، أو يبلغ الشرطة ويرغمني على ذلك كما في بعض البلدان العربية.. ولا تعرف أن مثل هذه الأمور سيودي بها وبي إلى التهلكة".. هذا ما كنت أحدث به نفسي، وأنا في طريقي إلى المستوصف.. تمنيتُ لو أبكي وتسيل دموعي، فقد يزيل البكاء بعض همّي وكربي، ويُطهّرني مما أعاني من أفكار.. أحسستُ أني أعيش مأساة حقيقية دون أن يكون لي ضلع فيها.

كنت مشوّش الأفكار، قادتني فكرة جنونية وسوّلت لي نفسي أن أعطي مريم سماً يقتلها أو يقتل ما في بطنها، وليحدث بعد ذلك ما يحدث.. "درهم وقاية خير من قنطار علاج".. أسرعتُ إلى خزانة كنت أخفي بداخلها بعض السموم، أخذت حبتين وعدت أدراجي إلى مريم.. كان والدها مستلقياً في الغرفة الخارجية

ومريم تتأوّه.. ملأتُ كوباً من الماء وطلبت منها أن تأخذ الحبتين، فقالت بهمس: "لو كان سماً سأشربه من يدك".

تظاهرتُ بعدم السماع، استرختْ على السرير وراحت تتقلب تحت الحرام، تتأوه وتقول: "آه يا قلبي الضعيف.. الحزن منك وفيك، فماذا أفعل لك!".

كانت تحاول أن تُسمعني أنينها وتوجعاتها.. ومع ذلك تركتها لمصيرها وخرجت من البيت.

في بيتي انزويت إلى ظلام أفكاري، كنت أرتعد.. اجتاحتني أفكار سوداء ومخاوف.. غصتُ في المجهول، مستقبلي وعملي، سُمعتي بين الناس، وعما تخبئ الأيام القادمة من شرور.. مريم أثارت في نفسي كل مشاعر الانكسار.. فما قيمة المال الذي أجمعه عندما أخسر شرفي، وأموت رجماً بالحجارة كالشيطان بسمعة سيئة وشرف مطعون!.

***

بعد أكثر من أسبوع من المعاناة، قمت بزيارة إلى بيتها أستوضح الأمور، وأتحرى أخبارها.. والدها لم يكن في البيت.. كانت أفضل حالاً، لكنها بدت شاحبة وهزيلة.. لاذت بالصمت والغموض ولم تقل شيئاً عما حدث معها.. سألتها: "لماذا تتهرّبين من الموضوع!؟".. قالت إنها لا تهرب من مواجهة ولا تغوص في المجهول، وقرارها واضح وصريح..

- لا أفهم ما تقولين!.
- أنت أعطيتني دواء تعرف مفعوله جيداً.. لكنني سأخبرك الحقيقة لأني أحبك فقط.. أحياناً تتأخر العادة الشهرية عند المرأة، مما يُسبب لها آلاماً حادة ومغصاً شديداً.. لكن دواؤك الذي لم أتناوله أشعرني أنك مهتم بي، وهذا ما ساعدني على تخطي المشكلة، واستعادة نشاطي.

لا أدري كيف غابت عني هذه الفكرة وأنا ممرض القرية وطبيبها!.. وعندما سألتها عما قالته ذلك اليوم، وكيف اتهمت نفسها واتهمتني!.. ابتسمت ونظرت في وجهي قائلة:

- أحببتُ أن أختبر مشاعرك نحوي..

مريم لم تيأس ولم تعدم المحاولة، ولا أدري إذا كانت قد أحسّت بحيرتي معها وضياعنا في الصحراء!؟.. ومع ذلك خرجتُ بلا مبالاة وهي تشيّعني بنظراتها، مزمعاً أن لا أعود إليها أو أحدثها مطلقاً.

***

كف عدس

بعد صلاة ظهر أحد الأيام، ظهر الأقرع من أقصى الديرة يلهث ويعدو كزوبعة ويصرخ:

- الكلب المسعور هجم على حلال الأميرة المزيونة..

أسرع إلى غرفته القريبة من ماتور الكهرباء، حمل بندقيته، ووضع بداخلها مشطاً من الرصاص وعاد يركض باتجاه الكلب، تبعه بعض الرجال يحملون بنادقهم أيضاً، وهرولتُ مع من هرولوا إلى طرف الديرة.

كانت الدماء تنزف من أجسام الأغنام الملقاة على الأرض مبعثرة تنازع الروح، بعد أن تعرضت للعضّ والنهش من الكلب المسعور.. أما بقية القطيع فقد هرب في الصحراء، تناثر في كل الاتجاهات، والكلب يركض خلف الأغنام يعضّ وينهش.. وما أن شاهد الرجال يطاردونه حتى استدار واتجه نحوهم مباشرة.. لكن الأقرع كان الأسرع في إطلاق النار عليه.. قفز الكلب قفزة عالية في الهواء كادت تصل إلى وجه الأقرع، فعاجله الأقرع بطلقة ثانية جعلته يرتطم بالأرض بلا حراك.

كان الزبد الأبيض المختلط بالدم والشعر يتجمع على أنياب الكلب وحول فمه عندما وصلناه.. يهمر ويتنفس بصعوبة ويتخبط بدمائه، أخذ الرجال يطلقون النار عليه من بنادقهم، وهو متجهّم الوجه عابس يهتزّ تحت وطء الطلقات النارية.. قاموا بعدها بحفر

حفرة عميقة، جرّوه إليها وأهالوا عليه التراب.. ثم راحوا يجمعون الأغنام الهائمة على وجوهها.

في الديرة كان الوجوم يخيم على الأميرة والنساء المحيطات بها، وهن يسألن عن الخسائر.. والأقرع يلوح ببندقيته عالياً، ويطلق النار في الهواء، منتشياً بالنصر الذي حقّقه.

بعد العصر التقيتُ بأبي راجح.. كان منزعجاً.. قال إنه لم يعد يعرف طعماً للنوم من أصوات "شليات" الغنم التي تمر قرب بيته.. ويُفكر بالرحيل إلى بيت آخر، لكن المشكلة في ابنته جميلة التي ترفض الرحيل، ودعاني إلى بيته لأقنعها بالعدول عن رأيها.

دفع باب الحوش الخارجي بقدمه ودلف وأنا أتبعه.. ظهرت امرأة بثياب بدوية خارجة من داخل البيت في طريقها إلى الباب الخارجي.. اعترض أبو راجح طريقها فجأة، ووقف قبالتها مباشرة.. ارتبكت المرأة التي تغطي وجهها وتلفُّ جسدها بعباءة سوداء وابتعدت عن طريقه.. أسرع إلى الباب الخارجي وأغلقه من الداخل، ونادى على ابنته بصوت مرتفع: "جميلة، يا جميلة".. لكن جميلة لم تظهر ولم ترد.. تقدم نحو المرأة.. حاصرها عند الباب، ورفع عصاه التي يتوكأ عليها نحو وجهها، حاول أن يزيل البرقع عنه.. وقفت المرأة بتحفّز وغضب، وقالت:

- علامك يا أبو راجح!.. إنت مخبول في راسك ولاّ بيك شي!.

حركة أبي راجح المفاجئة جعلتني أتسمر في مكاني.. تراجع أمام صوتها الذي خُيّل لذاكرتي أني أعرف صاحبته جيداً.. ظهرت جميلة من الداخل مسرعة.. قالت:

- مالك يابا.. هذه جزعة زوجة عبد الله.

تراجع أبو راجح إلى الوراء، وقف وغرز عصاه في الأرض قائلاً للمرأة: "لا تؤاخذيني.. أولاد الحرام ما خلوا لأولاد الحلال طاقة.. فقد سمعت أن بعض الرجال يلبسون الثياب النسائية ويدخلون عند الحريم".

رفعت جزعة البرقع عن وجهها وقالت وهي تنظر إلى وجهه:

- أنا حرمة وماني برّيال..

اعتذر ثانية وفسح لها الطريق.. قالت وهي تنسحب خارجاً:

- إنت عود ما تستحي على شيبتك.. إنت ما تخاف الله في ظنونك الشينة في البنية!.

جلستُ معه في حوش الدار على حصيرة، بينما ولجت جميلة غرفتها وهي تُهمهم وتشتم بكلمات غير مفهومة.. وعندما سألته عن سبب تصرفه الحقيقي، قال:

- أولاد الحرام، يلبسون عباءات نسائية ويحجبون وجوههم ويدخلون إلى البيوت بحجة زيارة الحريم ويسرقون البيوت..

صمتُّ فجأة.. أحسستُ أنه لم يقل الحقيقة، وأن هناك ما يخفيه عني.. أضاف:

- أبو مريم جزاه الله كل خير، هو الذي نبّهني لهذه الأمور، وأكّد لي أن رجال الشرطة ألقوا القبض على أحد الرجال في المدينة وهو يلبس لباس امرأة بدوية، ويتخفى بين البيوت.

لم يخطر ببالي هذا التصرف يوماً ما، قلت له إنه أساء الظن بأهل الديرة أكثر من اللازم.. لكنه لم يأبه لكلامي وقال:

- أنت يا أبو سعيد عاشرتهم سنوات طويلة، لكنك لا تعرفهم جيداً.. ما أدراك إذا تخفّى أحد الرجال ودخل عند إحدى البنات.. هل تعرف ماذا يدور في غرفتها وأنت جالس تضحك وتشرب الشاي!، ويا غافل إلك الله.. هل البدوية تكشف عن وجهها وتقول لك إنها امرأة إذا لم تسمع صوتها أو ترى وجهها، وزي ما قال المثل "إللي بيعرف بيعرف واللي ما بيعرف بقول كف عدس".*

---

* هذا المثل يستعمل ليبين أن السبب الذي يراه الناس هو غير الذي في الواقع، وقد قيل الكثير عن أسباب نشوئه، ومنها أنه كان في سالف الزمان امرأة تعشق رجلاً غير زوجها، وفي أحد الأيام واعدته لتلتقيه في بيدر العدس المخصص لجمع حبوب العدس بعد قطفها، وفعلاً التقت الزوجة بعشيقها في البيدر، وجلسا سوياً يتبادلان الغرام، حتى جاء الزوج وشهد ما كانت عليه زوجته وعشيقها، وهنا نهض العاشق بسرعة هارباً من الزوج وبيده حفنة من العدس، فركض زوج المرأة خلفه يريد أن يفتك به على فعلته

مع زوجته.. وخلال مطاردته تدخّل الناس لحل الخلاف بين الطرفين بدون علمهم سبب هذا النزاع، وعند السؤال عن سبب الخلاف قال العاشق "يلاحقني هذا الرجل من أجل حفنة من العدس"، فنظر الناس إلى الزوج نظرة عتاب واستغراب على هذا البخل والغضب من أجل كمية قليلة من العدس، لكنه لم يكن قادراً على الرد والدفاع عن نفسه خجلاً من فعلة زوجته مع الرجل، فرد قائلاً "اللي بيعرف بيعرف واللي ما بيعرف بقول كف عدس".

أثار أبو راجح أفكاري وأدخل الشك في رأسي.. بصراحة أقنعني، ومع ذلك حاولت تهدئته وقلت:

- إن بعض الظن إثم.. فإذا كنت تشك بالآخرين، فلا يجوز أن تشك في أهل بيتك.

ظهرت جميلة من الداخل وبيدها صينية الشاي.. التزم أبو راجح الصمت.. أضفت:

- الباب اللي بيجي منه الريح سِدّه واستريح..

استشعرت جميلة بما يدور بيننا، فقالت بثقة وعتاب أيضاً:

- حط إيدك في ميّه باردة يابا.. بنتك أشرف من الشرف، بس انت عارف "اللي على راسه بطحة بظل يحسّس عليها".. و"من شبّ على شيء شاب عليه".

أحسستُ إحساساً داخلياً وواضحاً أنهما يتبادلان التّهم ولا يُفصحان.. هي تُذكّره بماضيه، وهو يسيء الظن بها وبكل الناس.. قال: "الغُربة بتضيّع الأصل.. واللي بيعيش ياما يشوف".

- واللي بيلف ويدور بشوف أكثر. قالت.

قطع حديثهما بوق سيارة متقطّع وكأنه آتٍ من بعيد.. تململت جميلة في جلستها.. أحسستُ بالانفعال الذي داهمها فجأة.. بدت مرتبكة على نحو ما.. سمعنا صوت محرك السيارة يقترب وبوقها يدق بنغمة معيّنة ومتقطّعة.. ثم سمعنا ثغاء أغنام متواصل.. وقفت جميلة وبيدها كوب الشاي، اتجهت إلى الباب الخارجي وأخذت تنظر من ثقب في وسطه، ثم استدارت وولجت غرفتها.. هبّ والدها واقفاً واتجه نحو باب الحوش الخارجي بصمت.. لحقتُ به ووقفت خلفه مباشرة.. فتح الباب حتى منتصفه.. شاهدتُ الأمير جفران وبفمه مسواك، يقود سيارة هايلكس ببطء شديد، وينظر باتجاه الباب، وفي صندوق السيارة كان هناك عدة خراف تثاغي.. وعندما شاهد أبو راجح قرب الباب توقّف وسحب المسواك من فمه وقال:

- الله بالخير.. قوّاك الله يا أبو راجح.

- قواك الله. قال أبو راجح وعلت وجهه تكشيرة كبيرة، ولم يدْعه للدخول، مما دعا الأمير مواصلة سيره..

صفق أبو راجح الباب وأغلقه من الداخل بإحكام وقال:

- يا شايف الزول يا خايب الرجا، حسّبنا الأمير أمير طلع الأمير راعي.

جميلة كانت تقف قرب باب غرفتها تراقب والدها غير راضية عن تصرفاته.. شعرتُ أنها ستنفجر في وجه أبيها في لحظة قادمة.. لهذا تركتهما وخرجتُ أتمشى نحو المستوصف.

في الطريق شاهدتُ الأمير ثانية يقود سيارته على مهل، بعد أن أفرغها من الخراف.. توجه نحوي وقال: "ترافقني للبستان؟".

كان المساء قد حل.. وكنت بحاجة لمن أتسلى معه.. صعدتُ بجانبه، وراح يقود السيارة إلى داخل البستان دون أن ينطق بحرف، أو يُفصح عما في أعماقه.

***

سواليف

في المضافة الرملية كان الرجال يسهرون ويتسامرون بعد صلاة العشاء، يحكون عن مغامراتهم وعن الصيد والقنيص وحيوانات وزواحف الصحراء.. والمطوّع يسرد لهم المرة تلو الأخرى حكاياته الغريبة عن الجن والإنس والشياطين.

أسراب من البعوض والهسهس غزت المضافة المكشوفة تلك الليلة، عند ضوء المصباح كانت فراشات بيضاء صغيرة تحوم وتتجمع، تضرب المصباح بجناحيها وتسقط على الرمال، يلتقطها نمل صغير جداً، يتكاثر عليها، يشل حركتها في ثوانٍ معدودة، ويبدأ بالتهامها.

تناسى أبو راجح ما حدث بينه وبين المطوّع منذ زمن بعيد وعاود سهراته مع الرجال.. على العشاء المكوّن من اللحم والأرز، أخذ الرجال يلتهمون الطعام بشراهة، ولم يستطيعوا إخفاء اشمئزازهم وهم يرون أبا راجح يتجشأ بصوتٍ عالٍ بين اللقمة والأخرى..

قام الأقرع ودار بدلّة القهوة مبتدئاً بالأمير جفران الذي جلس في صدر المجلس، وأتبعه بالمطوّع الذي جلس بجانبه الأيمن، ثم دار على بقية الرجال.

كان القمر يشق طريقه في كبد السماء عندما طلب الأمير من الأقرع أن يُطفئ ماتور الكهرباء.. ساد هدوء وصمت صحراوي

على المكان، زحفت الخنافس والعقارب السوداء من جحورها وبدأت بالظهور.. ومع صرير أصوات الصراصير تعالى نباح الكلاب من على بعد حول أطراف الديرة، وقرب بيوت الشعر المتناثرة.

في ليل الصحراء تستيقظ الحواس، تدفعها البراري لاستحضار وإيقاظ الأشياء الغافية في أعماق النفوس البشرية.. عاد الرجال لهمساتهم، وعلت أصواتهم من جديد.. قال عبد الله:

- اسمعوا يا الحاضرين وانتم تصلوا ع النبي، أبغى أسأل مطوّعنا عن أموال الزكاة إللي سمعنا بيها قبل أسبوعين؟.

جفل المطوّع من السؤال المفاجئ، لكنه بقي صامتاً وكأنه لم يسمع.. وعندما وجد الرجال صامتين ينتظرون الإجابة، عدّل من جلسته وقال: "الزكاة للفقراء والمساكين وأبناء السبيل"..

- طال الله عمرك "قال عبد الله"، أنا أدري أن الزكاة للمحتاجين، لكن أنا أنشدك عن المال اللي وصلك من وجوه الخير قبل أسبوعين، وحقّنا بيه.

تلعثم المطوّع.. وبعد لحظة صمت قال: "يا عبد الله إنت تسأل وايد، وسؤالك ماله لزوم، واذا كان لك حق بيه يصلك إن شاء الله".. ثم أخذ يتكلم عن الديرة وأمراضها وعن أهلها الذين تتلبّسهم الشياطين.. لكن الرجال لم يُقنعهم جوابه، فأخذوا يتهامسون.. وقد عرفتُ من أحدهم أن مبلغاً كبيراً من المال تسلّمه

المطوّع من أحد أمراء الدول المجاورة، لتوزيعه على الفقراء والمحتاجين زكاة عن ثروته الطائلة.. لكن المطوّع لم يجد أحداً أحق منه في المال، فأخذه لنفسه وتكتّم على الأمر.. وعندما لاحظ الأمير ما يدور بين الرجال من هرج، قال:

- ايش هالسواليف التعبانة، اهرجوا هرْج زين، واللي ما عنده سالفة زينة يسكت.. وإنت يا الأقرع، قم صُب القهوة.

ساد الصمت من جديد.. بعد أن شربوا القهوة، قال أحدهم:

- أنا عندي سالفة زينة، تبغون تسمعونها!؟.

لم يجب أحد، فقال الأمير:

- اهرج يا فالح، ولاّ غابت عنك السالفة.

اعتدل فالح في جلسته وبدأ بالصلاة على النبي، ثم بدأ يتحدث عن رحلة قام بها قبل أكثر من خمسة أعوام إلى بلاد جبلية بعيدة في الجنوب.. قال إنه شاهد تلك الأرض خضراء ومليئة بالأشجار والفواكه والخضروات، ويقولون عنها جنة الأرض، وأن بيها أمطار تنزل في الصيف وفي حر الشمس، غير إن العجيب بهذيك الديرة أن رجالها لا يعملون شيء، والحريم تعمل كل شيء.

حكايتة شدّت الرجال وجلبت انتباههم.. فغروا أفواههم وجلسوا يُشنّفون آذانهم لسماع المزيد.. أضاف:

على امتداد هذيك الديرة كانت الحريم تعمل كل شيء، في الصباح يغسلن المواعين والثياب، يذهبن إلى الحقول، يحرثن

الأرض على البقر أو الجمال والحمير، يزرعن الخضروات ويبعن في الأسواق.. وبعد الظهر يقمن بنقل المياه إلى البيوت..

في هذيك الديرة شاهدتُ بأم عينيّ حرمة تحمل على كتفيها خشبة يتدلى منها دلوان مليئان بالماء، والعرق يتصبّب من جبينها.. كما شاهدتُ بعض الحريم يحملن القرب المليئة بالماء الصافي على ظهورهن، ويعدن بها إلى البيوت.. وكذلك شاهدت الحريم يسرحن بالأغنام لرعيها ويجمعن الحطب ويحملنه على ظهورهن، ويقمن بتخزينه لفصل الشتاء.. في حين أن الرياييل يتجمعون أمام البيوت يمضغون نوع من النبات يسمونه "القات"، يملؤون به أفواههم ويُخزّنوه خلف أضراسهم، وكل دقيقة يتفلون على الأرض لعاباً أخضر اللون.. تراهم بوجوههم السمرة المحروقة تقول نايمين.. وحين يصحون يلعبون السيجة ويدخنون الشيشة.

البيوت يسمونها علالي، والعلالي بيها طبقتين أو ثلاثة، مبنية من الحجارة، وبين كل مدماك والثاني صف بارز من الحجارة الرقيقة بشكل خطوط أفقية من الخارج، وطينية من الداخل.

قاطعه أحد الجالسين وسأله:

- وما دريت ليش الحريم تعمل والرياييل نايمين**!؟**.
- ترى حكايتهم صابتني بالخبل، ظلّيت أتقصى حتى عرفت سبب بلاهم..

- اهرج، ايش سبب بلاهم؟. استعجله آخر.

قال فالح بأن أحد كبار السن في تلك الديرة أخبره بأن الريابيل زمن "أيدادهم" الأولين، كانوا يقومون بكل أعمال الديرة، والنساء قاعدات في البيوت تتزيّن لهم.. وفي يوم من الأيام عاد أميرهم العود تعبان، والنوم قاتله.. نعسان وبيه خبل، وراح بسابع نومه.. وحين لفت أم عياله تنام عنده ما صحا بنوب، وما قدر ينام معها..

ضحك الأقرع وقال بصوت عال: "يا احليلها أم البزور هذيك الليلة"..

صرخ الرجال وطلبوا منه السكوت، كما طلبوا من فالح أن يواصل حكايته.. أضاف فالح: في الليل حاولتْ أم العيال أن توقظ بعلها، غير إنه ما صحي.. وحين جافاها النوم راحت تلعب بجسده وهو نايم.. قامت بربط يديه، ثم ربطت رجليه وأخذت تتسلى بشعره وتقوم بتربيط جدايله.. وحين صحا الأمير عند الفجر وجد نفسه مقيداً.. فعرف كيد النساء، وقال في نفسه "لو كانت أم العيال تتعب مثلي كان ما عملت اللي عملته، بس الراحة وقلة العمل تعمل أكثر من هذا العمل"..

بعد أن فكّ قيوده، جمع ريابيل ديرته، وأخبرهم بحكايته.. وعرف منهم أن معظمهم يواجهون نفس المشكلة، لكن بِطُرق مختلفة.. عند ذلك قرروا أن تُجرّب الحريم العمل والتعب لمدة أسبوع كامل، في حين يجلس الريابيل في البيوت ولا يقومون بأي عمل.. بعد ذلك قرر الريابيل أن يعملوا أسبوعاً والنساء يعملن

أسبوعاً آخر بالتناوب.. ومع مرور الأيام صارت الحرمة تكد وتعمل والرتّيل قاعد ينتظر حرمته، لينام معها في الليل.

علّق الأقرع ثانية: "يا احْليل ريابيل الديرة، ياكلون ويزغبون، ما وراهم شيء".. ضحك الجميع، فأضاف:

- ترى يا فالح أنا أعرف هذيك الديرة وأعرف أهلها زين.
- وإنت ايش تعرف عنها هداك الله. قال فالح.
- أنا أعرفها قبل إنت ما تحقها بنواظرك. "أجاب الأقرع"، إنت تعرف إنه يعيش بيها قرود وسعادين.
- اي بالله سمعت، بس ما حقّيتها بنواظري.
- ترى أنا احكيلكم ما شفته بنواظري هناك..
- اهرج، وقل سالفتك يا الأقرع. قال الأمير.

قال الأقرع: مرة قصدتُ مدرّس في عوزة وكانت أم البزور تقرّص على الصاج خبز يسمونه شراك.. جا قرد أسود مثل الليل كبير وجلس قُدامها.. قامت البنية مذعورة تصرخ.. حمل المدرّس عصا وضرب القرد وطرده، قلت له يعطيه رغيف ويروح لحال سبيله.. لكن المدرس أبى، وطرد القرد.. وعادت حرمته ترق العجين وتفرده وتلوحه بين يديها، وتحطّه على الصاج..

بعد نصف ساعة سقط حجر عند الموقد، وسقط حجر ثاني على باب الحوش.. وحين نظرنا، شاهدنا القرد يحمل بين يديه حجارة ويقذف بها على البيت.. لكن المدرس طرده ثانية وضربه

بحجر في ساقه.. هرب القرد وهو يصرخ ويعرج ويحمل حجارة يهدد المدرّس بيها.. مسكين المدرس، ما يعرف قلوب القرود وحقدها على البشر، نصحته يعطي القرد رغيف ويروح في حال سبيله، لكن ما سمع نصيحتي.. بعد العصر لفى القرد مرة ثانية وخلفه قطيع من القرود، يزيد عددها عن مائة قرد، وكل واحد يجر أولاده وراه، أو يحمل ابنه على ظهره.. وعينك ما تشوف إلا ضرْب حجار على بيت المدرّس.. هرب المدرّس من البيت، وهربتْ أم عياله، وانا هربت أحاول أنقذ روحي.. غير إن القرود الملاعين لحقتْ بالمدرّس وتركتْ حرمته، وظلّت تطارده بالحجارة حتى وقع على الأرض، وصارت تصرخ وتقفز فوق بطنه حتى شهق روحه.

- سالفتك غريبة يا الأقرع. قال أحد الجالسين مقاطعاً.
- غريبة، بس قلت إللي حقيته بنواظري.
- يكفينا سواليف.. قُم هات الشيشة وصب اقْهَوَة. قال جفران.

قام الأقرع على عجل، أصلح شيشة الأمير، سحب نفساً عميقاً منها ثم ناول اللّيْ للأمير.. كان الليل قد انقضى وتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود.. قال المطوّع وهو يحاول الوقوف على ساقه: الصلاة، الصلاة.. ما تخلّوا السواليف تلهيكم عن ذكر الله وعمود الدين.

قام الجميع يتثاءبون ويتناعسون.. توضأوا ومسحوا وجوههم بالماء.. وحين خرجوا من المسجد كان الأقرع يحمل صحناً كبيراً من اللبن المخيض وقال: "خذ يا دكتور اشرب حُقْ لبن".

تناولتُ الصحن من يده وشربت.. كانت قطع الزبدة تطفو على سطحه، شعرتُ بانتعاش.. بدا الفجر بلون لبني أيضاً، لكني كنت بحاجة إلى النوم.. بصعوبة قادتني قدماي إلى البيت.. استلقيت على السرير ورحتُ في سبات نوم عميق.

***

منيرة

بعد غياب دام أكثر من سبعة أعوام في كنف الأمير شبيب، عادت منيرة إلى الديرة.. انطلقتْ تتأرجح بمشيتها خارج البيت.. شاهدتْ عيون الرجال تُحدّق بها وتلاحقها للمرة الأولى.. أعجبها ذلك.. فأعادت الكَرّة في اليوم التالي.

كانت تمر جانب الرجال فتسمع تعليقاتهم وأمنياتهم.. لكنها لا تأبه لهم.. تتثنّى وتتبختر كالطاووس، تطلق ابتسامة إعجاب بنفسها.. العينان وحدهما كانتا تنطقان بآلاف الكلمات، لتخبرهم بأن يموتوا بغيظهم..

تناسوا اسمها الحقيقي، وأطلقوا عليها لقب "إسنافيه"، حتى صارت مضرب الأمثال في الجمال البدوي.. وراحوا على قارعات الطرق يتغزّلون بجمالها، وينتظرون رؤية طلعتها البهية بفارغ الصبر.

في مجالسهم راحوا يتغنون بجمالها، ويضربون بقوامها الأمثال.. "الفتاة الجميلة ذات القوام الرشيق تشبه السنافيه".. والسنافيه تعني المرأة ذات المواصفات الخلابة.. القد الرشيق، الطول الفارع، العنق الطويل، الوجه الجميل، الشعر الطويل الفاحم السواد، الخصر النحيل، الردفان العريضان، التبختر والمشي على رؤوس أصابع قدميها، تدفعها وتحركها نسمة هواء خفيفة.

"منيرة" صاحبة هذه المواصفات.. السنافيه التي ظهرت فجأة على أعين الرجال، بعد غياب دام لسنوات عديدة عن القرية، عرفتْ كيف تعيش الحياة، وكيف تبدأ من جديد.

ذات مساء، دلفت البيت وسألتني عن زوجتي.. كثيراً ما كانت تجالسها وتتحدثان عن همومهما وعما لاقته منيرة بعد زواجها من الأمير شبيب، وفي معرض حديثها مع نعمة تلك الليلة، قالت منيرة بأنها أقامت في المدينة وحيدة لسبعة أعوام في قصر مغلق الأبواب.. ومع ذلك لم تنس الديرة التي تربّت وعاشت فيها سنوات طفولتها وصباها، وما زالت تتذكّر الكابوس الذي جثم فوقها وقطّع أنفاسها.. تتذكر الأمير بألم وكأنه حلم مزعج.. وتتساءل في قرارة نفسها، إذا كان ما حصل لها تلك الليلة حقيقة أم حلم مرعب!.

كسراب كانت منيرة تستعيد اللحظات المؤلمة، تتشقّق شفتاها ويجف ريقها وتتسارع أنفاسها.. أضافت: "بعد سنوات من العذاب، وجدتُ جسدي ينمو بسرعة مذهلة.. أحسستُ بماء الشباب يتدفق في عروقي.. وبغريزة الأنثى أيقنتُ أني جميلة وجذابة، وشعرت أني وُلدتُ من جديد".

كانت منيرة تحن إلى مسقط رأسها دائماً، "كما قالت"، الأمر الذي دفعها للعودة إلى ديرتها لتقيم في بيت من الشعر فوق الرمال العذراء.. أول ما قامت به بعد عودتها إلى الديرة أنها

أسرعتْ إلى الغدير الذي تعرفه منذ كانت ترعى حلال الأميرة المزيونة، انحدرت نحو بركة ماء جانبية بعيدة عن الأعين، وقفت حتى صفا الماء واستبرق، نظرت إلى الماء من على صخرة كانت تقف عليها مذ كانت طفلة صغيرة، حدّقت بنظراتها في الماء الرقراق.. شاهدت قامتها ترتفع كشجرة باسقة.. أزالت البرقع عن وجهها.. ظهر الجزء العلوي من صدرها عارياً منعكساً في الماء كالبلور.. حرّك الهواء الخفيف ثوبها الأسود الملتصق بجسدها، وأزاحه بعيداً عن ساقيها.. تأملت جسدها، شاهدته على حقيقته لأول مرة، أحسّت بخفقان قلبها يشبّ ويتمرد.. نبضها أخذ يتسارع أيضاً، وراح جسدها يرتعش.. جلست تستريح فوق الصخرة.. وبدأت تتأمل صورتها في انعكاس الماء من جديد.

أضافت منيرة بأنها شعرت بنفسها تلك اللحظة بأنها أميرة بحق تجلس على صفحة ماء، تأكدت من جمالها الفتان.. كظمتْ صرخة فرح، وأطلقت آهة.. حدثت نفسها بأن منيرة زوجة الأمير شبيب الذي تركها في مهب الريح، تغالب عواطفها منذ أن غادرها، ولم تره منذ ذلك الوقت، ماتت ولم يعد لها وجود.. وفي قرارة نفسها وهي تنظر إلى الماء، أعلنتْ عن مولد امرأة جميلة تستحق أن تعيش الحياة.

بخطوات رشيقة راحت تتمشى بجانب الغدير.. تمايلت، تبخترت في مشيتها وابتعدت قليلاً، ثم عادت إلى نبع الماء،

غسلت وجهها وعنقها.. تحركتْ الأنثى النائمة في أعماقها.. قذفت بنفسها في الماء الرقراق واغتسلت.. وحين عادت إلى بيتها، نظرت في المرآة.. رفعت البرقع عن وجهها ثم أسدلته، تأمّلت عينيها ثانية من خلال البرقع حتى أدركتْ معنى حور العينين.. خضّبت كفيها بالحناء، وجلست أمام منظرتها ثانية تتأمل جمال وجهها.. امتدت يدها ودغدغت وجنتيها بأصابعها، احمرّا قليلاً.. ابتسمتْ، لامست صدرها براحتي يديها.. شعرتْ باختناق جسدها داخل الثوب، وأخذت أنفاسها تتسارع من جديد.

تلك الليلة نظرت منيرة إلى أمتعتها "كما قالت".. أمسكت فستان فرحها الذي أحضره الأمير شبيب هدية ليلة يوم زفافها ومزّقته.. تناولت فستاناً بلون الليل تُزيّنه خطوط حمراء طولية ولبسته.. كان ضيّقاً عند الخصر، واسعاً من الأسفل وطويلاً.. شعرت أن صدرها يختنق داخل الثوب ويتحفز للقفز خارجه، أطلقت لثدييها العنان وغطّتهما بالبرقع الذي أخفى ملامح وجهها الجميل أيضاً.

صباح اليوم التالي راحت تتمشي بخُيلاء تستعرض رجال الديرة من حولها، ترفع رأسها عالياً حتى تُشعرهم بجمالها الذي تحوزه، وتخفي وجهها تحت البرقع.. تفوح حولها سحابة من العطر الأنثوي الجذاب وهي تدرج، ترمقهم ذات اليمين وذات اليسار بنظرات غرام قاتلة.. تهمس لنفسها بصوت ذي نبرة

تآمرية: "لا يمكن لأي رجل أن يقاوم هذا الجمال، وتكفي نظرة واحدة مني كي يتساقطوا عند قدمي كالذباب".

أضافت منيرة: "أنا أعرف رجال الديرة واحداً واحداً، أعرف معنى نظراتهم وهم يغرقوني بعيونهم.. هم الذين دفعوني للتمرد عليهم.. كنت مدحورة عاطفياً بهمومي الشخصية عن حقيقة ما يدور حولي، كنت بعيدة عن الديرة خلال سُحب حنيني، ومع ذلك كنت أطير إلى مواطن القبيلة وحلال الأميرة المزيونة وأنا أرعاه بأطراف الديرة.. أستعيد يوم فرحي الذي لم أفرح به.. كنت صغيرة على الحب والزواج.. لم يرحموا صغر سني وجهلي.. لم يرحموا يُتمي ولا طفولة عمري الذي لم يتجاوز الثالثة عشر ربيعاً، ودفعوني إلى معاشرة الأمير الذي تجاوز الخامسة والستين من عمره.. كنت أبكي بحرارة وألم، تتقطع أنفاسي والأمير يجثم فوقي، ولا أعلم ماذا يدور بجسدي النحيل والصغير.

في الليالي المسهّدة الطويلة، شعرتُ بحنين الأنثى للرجل في خلواتي الليلية.. انتقمتُ لنفسي من نفسي، وحين عدت لديرتي، أول ما فكّرت به الانتقام من رجال الديرة أصحاب اللحى البيضاء والسوداء، الذين باعوا طفولتي بثمن بخس، ليعودوا اليوم يلاحقوني ويلتهموني بنظراتهم"..

أضافت منيرة بأن الرجال يمتلئون بالنظرات الجائعة.. تحسّ المرأة بهذه النظرات، تشعر فيها حين تسقط عليها وتلامس جسدها، وهي تتمشى في طرقات القرية.. هذه النظرات تلسع

جسد المرأة وتحرقه مثل النار، تقرص مثل العقرب، تعضّ أيضاً مثل ناب الكلب..

"نظراتهم التي تحرق، دفعتني لكي أصبح الجمرة التي تلسعهم وتحرقهم.. وحين أشعر بالإفلات من نظراتهم التي تحاصرني كشبكة عنكبوت، أود لو أصرخ.. لكن عيونهم تندفع ثانية من محاجرها، وتلاحقني مثل سهام تطارد غزالة برية".

منيرة تعرف أبناء ديرتها واحداً واحداً، كما يعرفونها جيداً.. ويعرفون أنها لن تكون لواحد منهم، ولن يتزوجها أحد.. فهي زوجة الأمير شبيب التي لن يستطيع أحد أن يمس شعرة من رأسها بعده.

إنها منيرة التي تفتّح جسدها كأزهار اللوز في بداية فصل الربيع بعد هذه السنوات الطويلة.. تتمشى تأطراً وشفافية، ومع كل حركة ترمي سهماً مسموماً يخترق قلوب رجال الديرة.. وكل واحد منهم يتمناها لنفسه.. حتى الأمراء كانوا يمنّون أنفسهم بلقائها، ولا فرق عندهم أن تكون عشيقة أو محظية لليلة واحدة.. المهم أن تكون فريسة طيّعة.. فالأمر سيان عندهم.. فهي من عامة الشعب، ليست بالأميرة ولا بالعبدة.. هي فقط منيرة السنافية المُشتهاة.

***

سوق الخميس

كثيراً ما كنت أرافق أهل الديرة أثناء ذهابهم إلى الأسواق التي تقام في القرى المجاورة.. ففي كل قرية يُقام يوم للتسوق، هناك سوق الاثنين مثلاً، وسوق الثلاثاء وسوق الخميس أيضاً.

في يوم التسوق يغادر الرجال الديرة منذ الفجر في سياراتهم الصحراوية ذات الدفع الرباعي.. أما الأقرع فكان ينتظر المدرسين حتى شروق الشمس ليصطحبهم معه.

على غير عادتها ركبت خزنة صباح ذلك اليوم جانب الأقرع في سيارة الجيمس الأمريكية.. وعندما هممتُ بالركوب في المقعد الخلفي قالت: "اركب ويّانا يا دكتور، الغمارة برحة".

كانت السيارة تتأرجح يميناً وشمالاً وتجتاز الطريق الصحراوي الذي بدا خالياً من أي أثر للحياة.. بعد أكثر من ساعة من القيادة المتواصلة قطعنا خلالها حوالي ثلاثين كيلومتراً، ظهرت لنا من على بعد بيوت من الشعر متناثرة، وفي مكان قريب منها كان هناك أناس يتجمعون.. فقاد الأقرع السيارة نحوهم، أوقفها جانباً وترجّلنا من السيارة للتسوق.

كان هناك عدة زرائب للأغنام، وأخرى للأبقار أو الجِمال والحمير.. زرائب متعددة للحيوانات.. على مسافة قريبة جلست بعض النسوة يعرضن أمامهن في صحون كبيرة من البلاستيك

وزرابيل من سعف النخل بضاعتهن التي تحتوي على جميد أو تمر بأشكال متنوعة.. وعلى مقربة منهن كان هناك نساء يبعن دجاجاً بني اللون صغير الحجم.. وبعض الرجال يبيعون القهوة الخضراء أو الهال بأصناف متعددة.. وفي ركن جانبي كان هناك بسطة كبيرة مليئة بالأواني والمواعين كالطناجر والصحون الكبيرة والصغيرة وأوان فخارية، وقِرَباً جلدية صغيرة مملوءة بالسمن البلدي.. يختلط الرجال بالنساء يبيعون ويشرون أو يبادلون سلعهم بسلع أخرى.. ولعل أهم ما شد انتباهي ثياب بعض النساء وملابس بعض الرجال، الذين توافدوا على السوق من مناطق البادية المترامية الأطراف، بعضهم يلبس وَزْرة، "الوزرة قطعة من القماش غير مخاطة، تشبه البشكير الذي يلفه المرء على وسطه حين يخرج من الحمام"، يلفونها على نصفهم السفلي فقط، ويتمنطقون بأحزمة عريضة يُعلّقون بها سيوفهم أو خناجرهم.. أما شعورهم فكانت مجعّدة ومشعّثة لم يغرز فيها المشط أبداً، يصنعون لهم جدائل تتدلى على رقابهم وأكتافهم.. كما يلفُّ بعضهم على رأسه قطعة من القماش الأسود تشبه الحزام، غرسوا في ثناياها وبين أطرافها سيقان النعناع أو الريحان، ونباتات أخرى خضراء اللون لا أعرف لها اسماً.

بشرتهم سمراء محروقة، أجسامهم تتمتع بصلابة الصحراء وقسوتها مثل رعاة الإبل.. يستمتعون بأشعة الشمس الساطعة اللاذعة، مما يكسب أجسادهم بعض الحمرة الداكنة أو السمرة

المحروقة.. أما وجوههم فهي سمراء أيضاً، حليقي اللحى إلا من خصلة شعر سوداء أو بيضاء، يتركونها تنمو كما شاءت تحت الفم وعند الذقن.

كانوا يتنقّلون بسرعة وكأنهم يهرولون وهم يشرون ويبيعون، يتحدثون بلهجة بدوية لم أفهم منها كلمة واحدة.. أما النساء الكبيرات السن والعجائز فكن يلبسن الفروات بعد أن يدهنّ أجسادهن بالسمن البلدي، كان ذلك واضحاً من خلال روائحهن النفاذة والحادة التي تثير في النفس النفور.

عند بائع العطور كان هناك بعض النسوة يتضاحكن ويشترين الطيب والبخور والحناء، وزجاجات العطر الصغيرة ذات الروائح الحادة.. بعضهن يلبسن قطعة قماش سوداء طويلة، مفتوحة عند الرقبة بمساحة الرأس، يتحزّمن بأحزمة جلدية رقيقة عند الخصر، بلا عباءات أو غطاء للرأس.. وبعضهن يلففن أجسادهن بقطعة قماشية مفتوحة من الجانبين من تحت الإبط حتى القدمين، يتوسطها على الخصر حزام من الجلد أو من القماش..

في السوق يوجد كل ما يحتاجه البدوي.. بالإضافة إلى متعة التسوق، هناك متعة المشاهدة بما لم يره المرء من قبل.. نساء، صبايا، باعة خبراء في التعامل مع الحريم، يبادرون بمخاطبة النساء بأجمل الألفاظ والكلمات البدوية، "يا بعد كبدي، يا بعد

قلبـي، ويـا بعـد روحـي"، ويملكـون الجـرأة والجسـارة وبعـض الفجور.

في ركن جانبي كان هناك رجلان حضـريان يبيعـان الذهب أو يشريانه من النساء.. كانت المرأة تعرض مـا علـى معصـميها من أساور ذهبية، فيقوم أحدهما بقص تلك الأساور عن يديها بمقص حديدي، ويضعها في كيس من الخيش، ويقوم الآخر بدفع الثمن لها دون وزن أو فصال.

التقيتُ ثانية مع خزنة التي كانت ترافق الأقرع.. تجوّلنا دقائق معدودة قبل أن يقف الأقرع يتحدث مع أحد المتسوقين.. تابعتُ التجوال مع خزنة.. قالت بلا مقدمات: "ترغب يا دكتور تشاهد واحد يزغب أمّه!".

تجاهلتُ مـا سـمعت، لكنهـا أعـادت الجملـة بصـوت أوضـح: "دكتور، ترغب تشاهد واحد يزغب أمّه!".

نظـرتُ حـولي، لـم أشـاهد أحداً يراقبنـا.. كـان كـل المتسـوقين لاهين ومنشغلين في شؤونهم.. قلت: "ايش تقولي يا خزنة!".

- ناظر، العجل يزغب أمه. قالت خزنة بفرح طفولي.

نظرتُ حيث أشارت.. شـاهدتُ عجلاً يسقط عن ظهر بقرة.. وفـي لحظـة مفاجئـة عـاد واعتلـى ظهرهـا ثانيـة، اهتـز اهتـزازات سريعة وقوية ثم تراجع عنها ومضى بخطوات واثقة إلى الوراء.

كان بعض الرجال والنساء يتابعون المشهد بفرح أيضاً.. وكان البعض الآخر مشغولين بما جاؤوا من أجله.. وخزنة تمسك يدي وتضغط عليها، سحبتُ يدي ورحت أتمشى وحيداً مبتعداً عنها..

كنت أتمشى في السوق وأعيش حلم الجاهلية الأولى.. تأكدت لي جاهليتي عندما رأيتُ مجموعة من المتسوقين، يتحلّقون حول رجلين يتبارزان بالسيوف، ويُظهران مهارتهما بلعب المدي والخناجر.. في ركن آخر وقف مجموعة من الرجال ينشدون الشعر وينظمونه ويتفاخرون بما يحفظون.. تذكرتُ ما قرأت من كتب عن عصر الجاهلية.. كان كل شيء يعيدني إلى تاريخ سوق عكاظ.. شعرتُ أني أنحدر إلى الوراء بمسافة تزيد عن ألف عام.. تساءلتُ في قرارة نفسي إذا كنت أعيش فعلاً في عصر الجاهلية، أم في عصر الذرّة والتكنولوجيا والفضائيات والأقمار الصناعية!.

شعرتُ أني على سطح كوكب آخر منعزل عن العالم لا يمتّ إلى هذا الكون بصِلة.. تساءلت ثانية إذا كان هؤلاء البدو قد سمعوا بحضارة الذهب الأسود، أو شاهدوا التلفاز أو ما يدور في الوطن العربي من حروب أهلية، أو سمعوا بنكبة فلسطين وتشرد أهلها أو الحرب التي يدور رحاها بين ايران و العراق !.. وما إذا كان زار بعضهم مدناً فيها مصانع وبنايات ذات طوابق عالية، أو أبراج ترتفع إلى عنان السماء تناطح السحاب!.

بعد الظهر بدأ المتسوقون يرحلون.. كان الجميع قد قضوا حاجاتهم وتسوقوا وعادوا.. وعندما هدر محرك السيارة وبدأنا بالإقلاع نحو الديرة بقيادة الأقرع، كان السوق بقايا آثار، رمال وغبار، أرض جرداء حافية، وكأن أحداً لم يطأها منذ أعوام خلت.

***

مستورة

قبل مغيب الشمس مررتُ على المستوصف.. شاهدتُ مستورة والممرضة رحمة تتحدثان.. سألتُ مستورة عن حالها!، تأوهت وقالت:

- أمس قال المطوّع كلام غريب.. قال في بطني ثعبان يأكل العيال ويأكل بيت ولدي، وأنا غير مصدّقه.. كيف يكون في بطني ثعبان ولا يلسعني ولا أحس بحركته!.

ضحكت رحمة طويلاً وقالت: "وعمل إيه معك المطوّع!".

قالت مستورة: "ذبح ديكاً أسود الريش، ومسح دمه على ثيابي، وقال بعد ثلاث ليال تعالي حتى أتوكّد أن الثعبان مات".

قلت لها بأن هذا كلام فارغ، أكاذيب وخرافات.. وأضفت "إن الله جعل من النساء العاقر وذات الولد"..

تنهدت مستورة وقالت: "إيش أسوّي إذا كان الله يريدني ما أحبل".

سألتها رحمة: أخبريني يا مستورة بصراحة، متى ينام عندك زوجك؟.

أخفضت مستورة رأسها، شعرتُ أنها تتألم.. حاولتْ التملّص من الإجابة، لكن رحمة ألحّت وكررت السؤال عليها، وقالت لها

أنها ستعطيها دواء للحبل إذا عرفت متى ينام معها زوجها خلال أيام الشهر.

أجالت مستورة بنظرها بيني وبين رحمة، قفزت دمعة من عينيها تركتها تنداح على وجهها، وقالت بمرارة:

- أنت يا بْنيّة رجّعتِ كل مواجعي.. ولد عمي ينام معي بالشهرين مرة.. دايماً ينام مع زوجته الثانية أم العيال.. لكن المطوّع يقول إنه عمل له حجاب ليعيده إلى فراشه عندي.. بس هو عنيد وراسه يابس.. والمرأة الثانية واكله عقله..
- المطوّع يلعب براسك يا مستورة.. قومي روحي دوّري على زوجك خليه ينام معك حتى تحبلي. قالت رحمة.
- أعرف يا دكتورة، غير أنا ما حبلت وهو ينام عندي أيام ما عرست..

قالت مستورة ذلك وتكوّرت على نفسها، شعرتُ أنها تحمل على كاهلها جبالاً من الحزن.. مطروحة بجسدها كثعبان جريح يأكله النمل كانت تلك اللحظة.. وحين قامت شعرتُ أنها هرمت فجأة.. ولاحظتُ عدم قدرتها على الوقوف.

في اليوم التالي سمعتُ أنها ذهبت للمطوّع وشجّت رأسه بعصاً غليظة.. لكن أحداً من القرية لم يعرف السبب.. وقال المطوّع: "إن مستورة انخبلتْ بعقلها، وتلبّسها جنّي كافر".

***

المرأة الشامية

صباحات أحد الأيام الصيفية القائظة، سمعتُ طرقاً قوياً على باب الحوش.. وعندما فتحتُ الباب شاهدتُ عبد الله واقفاً قرب الباب متوتراً قلق الأعصاب.. سأل بلا مقدمات:

- أسألك بالله تقول الصدق يا دكتور، الشامية مرت حذاك الليلة!؟.
- لم أرها منذ أن وصلتْ الديرة. قلت.
- تقول الصدق!.

أكدتُ له ما قلت ثانية.. نظر يميناً وشمالاً ثم أخفض بصره وقال بصوت خفيض وتعجّب: "خَبرتْها ما خرجتْ برّه الحوش من سنين طويلة، وهي ما تعرف حدا بالديرة.. عاد وين لَفَت!.. يكون راحت الصحرا وتاهت!".. ثم سار خطوتين وأضاف: "الخايسة، عسى وحوش البر تاكلها وتريّحنا منها".

بعد أن غادر عبد الله باب الحوش، غرقت أفكاري بالمرأة الشامية، راحت ذاكرتي تستفزني وتطرح آلاف الأسئلة.. الشامية هي المرأة الوحيدة التي لم أرها منذ أن وصلتْ الديرة، وهي الوحيدة التي لا أعرف عنها شيئاً غير ما قالته رحمة عنها.. تساءلتُ ما سر سجنها في البيت!، وما لغز العلاقة التي تربطها برحمة!.. وأين ذهبت هذا الصباح!.. أسئلة كثيرة طرحتها على

نفسي، وأنا أخف الخطى إلى المستوصف على أمل أن أجدها عند الممرضة رحمة.

في المستوصف كانت رحمة تضع على رقبتها منشفة، وقد انتهت لتوها من غسل وجهها من صنبور المياه الخارجي.. قلت لها بأن عبد الله سأل عن الشامية.. وقفت تمسح وجهها من الماء وقالت: "يا فتّاح يا حليم.. خلّيها تهرب وتموت، الموت أرحم لها من حياتها عنده".

- يعني تعرفين مكانها، أو تتنبّئين بهروبها!.
- لا بَعْرف ولا بَتنبّأ.. "قالت رحمة بعصبية"، لكن عندما زرتها في المرة الأخيرة طلبت مني أن أكتب رسالة لأهلها.. قالت إنها تعيش في جحيم سجن حقيقي، كانت تبكي وتتقطّع حسرة وألماً وأنا أكتب لها الرسالة.
- ولماذا لا تكتب رسائلها بنفسها!؟.
- وهل هذا سؤال يُسأل يا دكتور.. لو كانت تعرف تقرأ أو تكتب ما تزوجت واحد لا تعرف أصله ولا فصله وعاشت في الصحراء!.. حتى أهلها الملاعين لم يردوا عليها بجواب واحد، رغم أني كتبت لهم أكثر من عشر رسائل في العام الماضي.

حكاية الشامية نقلتني إلى عالم الغربة والضياع في المنافي البعيدة.. أوصلتني إلى حالة الكآبة.. وظللت ورحمة نُبحر في عالم الشامية بصمت كئيب حتى الظهر.

قبل صلاة العصر بدقائق اندفع عدد من الرجال داخل المستوصف، في مقدمتهم كان عبد الله يحمل بين ذراعيه امرأة فاقدة الوعي ملفوفة بعباءة سوداء، والرجال يحيطون به.. فتحتُ باب الغرفة الداخلية وسبقتهم إلى الداخل طالباً من عبد الله أن يضعها على السرير، ويُخرج الرجال خارج المستوصف.. لكن الرجال لم يخرجوا، وقفوا عند الباب يهمهمون بكلمات بدوية، بينما قمت ورحمة بإجراء اللازم للمرأة الغائبة عن الوعي، أثر تعرضها لضربة شمس قوية، بعد أن أغلقتْ رحمة الباب في وجوه الرجال.

كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها المرأة الشامية.. امرأة بيضاء البشرة، جميلة الوجه، شعرها أسود طويل، وشفتاها مشققتان وزرقاوان، ترتدي ثوباً رجالياً أبيض اللون وتحته سروال أبيض طويل.. وقد بدت طويلة القامة وهي ممدّدة على السرير.. قال عبد الله بأن أحد البدو وجدها في الصحراء ملقاة على الأرض، معتقداً أنها ريّال، وحين حاول أن يسعفه عرف أنها امرأة، فأحضرها على دابته للتعرف عليها.. وبعد لحظة صمت أضاف: "الخايسة، ما دريت كيف تركت الديرة!".

طلبت رحمة منه السكوت والانصراف من العيادة، حتى تقوم بواجبها تجاه المريضة، وإلا تركتها تموت.. قال:

- يرضيك يا دكتور كلام الدكتورة؟.

قلت له إن المرأة في أمان، وطلبتُ منه أن يذهب لبيته ليستريح، ويتركها حتى تسترد عافيتها وتصحو.. تردّد في البداية، لكني ألححتُ عليه، فخرج وقال للرجال: "الحمد لله، البنيّة بيها نَفَس.. إن شاء الله تكون بخير".

رحمة كانت عصبية ومتوترة المزاج، تسب وتشتم، والمرأة الشامية تتأوه بألم وتتقبّل العلاج وتتجاوب معه.. كان التعب قد هدّها وهي تركض في الصحراء، تدور وتبتعد عن القرية، تتيه في الصحراء وحرارة الشمس تلفحها.. عطشتْ، لم تجد غير الرمال والسراب.. لم تستطع مواصلة السير والتّوَهان، كما لم تستطع العودة.. توقفتْ على الرمال الحارة واستسلمت لمصيرها، "كما قالت لنا بعد صحوها".. وحين وجدها البدوي كانت قاب قوسين أو أدنى من الموت.. بلّل وجهها وشفتيها بالماء، ثم نقلها على بعيره إلى الديرة فاقدة الوعي.

كنت أجلس على طرف السرير، أنظر مباشرة إلى عينيها المرهقتين الناعستين عندما فتحتهما.. أجالت ببصرها يمنة ويسرة وكأنها تبحث عن شيء في ذاكرتها، فجأة صرخت بأعلى صوتها صرخة ألم، رددتها الصحراء والرمال والوحوش وعتمة الليل.. وحين هدأت قالت والدموع تقفز من عينيها: "وين أنا!، وين أمي وأبوي!؟"..

جلست رحمة عند رأسها، وراحت تمسح بماء بارد جبينها ووجهها ودموعها، وقالت: "استريحي ونامي الآن يا ميادة"..

هبّت ميادة فجأة من سريرها عندما شاهدت رحمة وسمعت صوتها، صرخت بأعلى صوتها ثانية: "اتركوني أموت، أنا ما أبغى العيشة في ديرة عبد الله"، وأخذت تضرب رأسها بيديها.. أمسكتُ يديها بينما راحت رحمة تمسح دموعها وتهدئ من روعها، وتطلب منها الهدوء والراحة، وميادة تصرخ: "أبغى أمي وأبوي وأخواني.. خلّصوني من عذابي أو اتركوني أموت".

قلت لها بأني طبيب القرية، وسأعمل كل شيء في سبيل راحتها، لكن عليها أن تهدأ قبل ذلك.. قالت وهي تبكي بحرقة وألم: "أرجوك يا دكتور، خبّر هلي عني، وأنا أخبّرك عن الألم إللي جوّاي.. هم ما يدرون بحالتي".

بكاؤها تحول إلى نشيج، وهي تخنق كلماتها التي تميل إلى اللهجة البدوية السائدة في القرية.. كانت السنوات الماضية التي لم تتحدث خلالها إلا مع البدو، كافية لتفقد لهجتها الأصلية، وكانت الدموع تخفي وراءها سر منفاها في الصحراء.

بعد أن استعادت وعيها تماماً، طلبت مني أن أخط رسالة لوالدها، كما طلبت أن أقوم بإرسالها بنفسي هذه المرة.. فوعدتها بذلك.. وعندما اطمأنت لي قالت: "يا ويلهم من الله، باعوني وما عادوا يسألوا عني".

بدت رحمة كالطائر المذبوح في غرفة العيادة.. انفعلت وازداد احتقان بشرتها، وأضافت هموم ميادة إلى همومها.

بعد صلاة المغرب عاد عبد الله ثانية.. وقف عند الباب وقال:

- عسى البنية ردّت روحها!..

صرخت ميادة من الداخل عندما سمعت صوته:

- أرجوك يا دكتور، أنا ما أبغى أروح لبيت عبد الله.. امنعه عني..
- هداكِ الله يا الغالية، إنتِ تروحين بيتك، مو بيتي. قال عبد الله من خلف الباب.

عاودت ميادة نوبة البكاء ثانية.. بكت بألم وتوجّع حاد.. نظر إليها وأضاف:

- تروّحين الليلة يا بعد قلبي، وباكر تعودين.. وإنت يا الدكتور اشهد على إللي أقوله.. بعد الليلة ما عدت أمنعها في البيت، هي حرة تغادر البيت وتروح للجيران وتروح مضافة الأميرة المزيونة، وتروح عند أم عيالك.. زين!.

لم تصدّق ميادة ما قاله عبد الله.. لكني أقنعتها بأنه سيَفي بوعده، وأنا أكفله.. فوافقت على مضض، وقالت والدموع تملأ عينيها: "زين، إللي تشوفه يا دكتور".

اطمأن عبد الله وخرج.. قامت ميادة ولبست عباءتها، ورافقتها رحمة حتى بيتها.

***

صباح اليوم التالي جاءني الأمير جفران متجهّم الوجه عابساً وقال: "عندي عْلوم أنك خطيّت كتاب لأهل الشامية.. أنا أبغاه منك.

- خيراً إن شاء الله. قلت له.
- خير، أنا أبغاه وبس.

أحضرتُ له الخطاب وأعطيته إياه.. قال وهو يتناوله من يدي وينصرف: "زين.. مرة ثانية ما أبغاك تكتب للبنيّة خطابات".

كان الأقرع داخل الحوش ولم يره الأمير، وعندما أخبرته بما فعل الأمير.. قال:

- يا دكتور، سلّمك الله، إنت خلّك بحالك، وما عليك من غيرك.. الأمير مزّق الخطاب مثل بقية الخطابات السابقة إللي كانت تخطها الدكتورة رحمة.. كان يأخذ الخطابات ويمزّقها قبل ما يغادر ناقل البريد الديرة.

***

بعد ظهيرة ذلك اليوم، وبينما كنت في المستوصف، دخلت رحمة مبتسمة وقالت: "احزر مين أحضرت معي؟".. وقبل أن أخمّن ظهرت ميادة من خلف الباب، تلف جسدها بعباءة سوداء.. ابتسمت رغم مسحة الألم التي تكسو وجهها وقالت:

- منذ سنين وأنا سجينة الحوش.. اليوم فقط تجوّلت في الديرة وشاهدت البيوت، كما زرت الحريم اللاتي كن يأتين عندي..

ابتسمتُ لها وقلت: ليتك هربتِ من بيتك من زمان..
قالت بأنها حاولت الهروب أكثر من مرة، لكنها لم تستطع الخروج من الحوش.. وعندما سألتها عن حكايتها، وكيف تحمّلت عذاب كل هذه السنوات، تنهدت وقالت:
- لا تذكّرني بمصيبتي يا دكتور.. أنا عايشه بكابوس.

طلبتُ منها أن تقص عليّ حكايتها، وقلت لها بأني في غاية الشوق لسماعها لأنقلها إلى أهلها بطريقتي الخاصة.. قالت بشرط أن لا تُخبر عبد الله أو الأمير.. وعندما وعدتها، استرخت على المقعد وجلست تتحدث بأسىً وحزنٍ عميقين..

الذكريات كانت تحاصرها.. تدفعها دفعاً إلى البداية.. تتذكر الشام وأهلها والجيران.. الذكريات كانت حاضرة في أعماقها، لم تفارقها لحظة رغم مرور السنين وتباعد المسافات.. الذكريات لا تلحقها، إنما تطاردها منذ أن وصل إلى بيت والدها ثلاثة رجال، يرتدون دشاديش بيضاء.. ليلتها تعشّوا في بيت والدها وسهروا حتى الصباح وهم يشوون اللحم، ويأكلون كل ما علق على الأسياخ.. ليلتها تعشى أخوتها كالملوك.. وفي آخر الليل وخلال تقديمها الشاي لهم، شاهدتْ أحد الرجال ينقد والدها رزمة من النقود.. وفي الصباح أحضروا شيخاً طاعناً في السن، يحمل دفتراً كبيراً، وجلسوا في غرفة جانبية، وحين خرجوا من الغرفة أنقدوا الشيخ مبلغاً من المال، وذهب في حال سبيله..

بعد وجبة الإفطار، ناداها والدها وقال لها وهو يشير إلى أحدهم: "هذا حلالك وأنت حلاله.. هذا زوجك وأنتِ زوجته على شريعة الله وسنة رسوله".

أضافت ميادة: المفاجأة عقدت لساني، كانت المفاجأة أكبر من كل أحلامي وأنا ابنة السادسة عشر من عمري.. لم أستطع النظر إلى وجه الرجل أو عينيه.. المفاجأة ألجمتني.. سمعتهُ يقول وهو يُلملم جوانب عباءته التي كان يطيّرها هواء المروحة حول ثوبه الأبيض: "بعيني يا عمي بنتك، أنا أهبها روحي".

كان فضولي كبيراً، وما حلمتُ يوماً أني سأكون غنية.. لكن الشاب صاحب الثوب الأبيض كان أكبر من حلمي، وأنا أرى نفسي أعيش في قصر، وأساور الذهب تلف معصمي بطول ذراعي، خاصة بعد أن شاهدتهُ يُعطي والدي ساعة ذهبية، ويهدي أمي خاتماً ذهبياً أيضاً، ويناولها صرة كبيرة من الثياب لأخواني، وأخيراً يُطوّق رقبتي بسلسلة وعقد ذهبيين.

لا أدري كيف طاوعني قلبي وفارقتُ أهلي.. أمي، أبي، أخواني وأخواتي.. ورحلتُ مع عريس الصباح وضيوف الأمس.. كان الأهل يُلوّحون لي بأيديهم، وأنا أصعد السيارة خجلة وفرحة.. سمعت أمي تزغرد وشاهدتُ أخواني الصغار يركضون ويبكون خلف السيارة، وأنا أمدّ عنقي وألوّح لهم بيديّ.

بعد ساعتين من السفر أجلسوني في المقعد الخلفي، وعلّقوا في سقف السيارة حراماً ساتراً بيني وبين الرجال.. فلم أعد أرَ أحداً منهم، وإنما أسمع أصواتهم فقط، ونادراً ما كنت أفهم كلماتهم البدوية.

بعد مسيرة يوم كامل، توقفت السيارة ونزل الرجال منها لتناول طعام العشاء وقضاء حاجاتهم.. لكني لم أرَ غير الرمال والغبار.. بعد وقت قصير عادوا وركبوا السيارة ثانية.. أعطاني أحدهم سندويش لأتعشى عليه، وحراماً جديداً لأتدثر به من برد الصحراء، كما قال.

بعد ذلك توقفت السيارة ثانية وثالثة، مرّ يوم وآخر، وأنا لا أرى غير الرمال والفراغ وبيوت الشعر المنصوبة هنا وهناك في الصحراء.. كان التعب قد هدّني فاستسلمتُ للنوم، ولا أدري بعد ذلك كم طال السفر.. وحين توقفت السيارة للمرة الأخيرة، سمعتُ أصواتاً جديدة، تقدم الشاب الذي قيل لي أنه العريس، فتح باب السيارة وأشار لي بالنزول.. كان الوقت ليلاً.. بعد لحظات جاءت امرأة طويلة تلبس عباءة سوداء، أمسكت يدي وقادتني إلى غرفة داخل بيت يحيط به سور كبير وعالي.. فتحت المرأة باباً خشبياً في أخر الساحة، رأيتُ على نور السراج الخفيف سريراً حديدياً.. أومأت لي بالدخول ولم تنطق بحرف.. وعندما دخلتُ الغرفة، خرجت المرأة وأغلقت الباب خلفها.. ثم عادت وأخبرتني أن بيت الخلاء خارج الغرفة في الحوش من الناحية الغربية.. تحدثّت

لأول مرة ولم أفهم ما كانت تعنيه ببيت الخلاء، وعندما اتجهتُ إلى المكان الذي أشارت إليه، فاحت رائحة نتنة، وشاهدتُ أكواماً صغيرة من الرمال داخل الغرفة الجانبية.. عرفتُ فيما بعد ما معنى بيت الخلاء.. وحين عدتُ كانت المرأة لا تزال واقفة، تحمل بين يديها ثوباً بدوياً طويلاً وقالت: "خذي هذا النفنوف ارتديه". وخرجتْ وأغلقتْ الباب خلفها ثانية.

جلستُ أستريح على السرير، ولشدة تعبي وإرهاقي رحتُ في سبات نوم عميق.

في الصباح جاءتني المرأة مرة ثانية تحمل إبريقاً نحاسياً وفنجاناً صغيراً.. دلقتْ القهوة وناولتني الفنجان.. كان لون القهوة أصفر وطعمها حارق، فأبعدته عن فمي.. قالت: "هذه قهوتنا، وعليك أن تتعوّدي عليها".

على مضض أفرغتُ الفنجان في جوفي، ثم قادتني إلى مكان الحريم.. هناك شاهدتُ بعض النساء ينتظرن قدومي، أخذن يتأملن وجهي.. شعرتُ من خلال نظراتهن أنهن ينظرن باستهزاء، ويُظهرن لي عداء دون أن أقترف ذنباً معهن.. وأخذن يتحدثن مع بعضهن البعض دون أن يتحدثن معي.

عرفتُ أنها نهاية المطاف.. تبخّرتْ أحلامي وضاعت القصور التي حلمت بها طويلاً، ولم يعد للذهب قيمة تُذكر أمام البيت

الطينـي وبيـت الخـلاء.. بيـت الخـلاء صـار أهلـي وأحلامـي، حاضري ومستقبلي ووطني الجديد.

بكيـتُ، طلبـتُ مـنهم أن يعيـدوني إلـى أهلـي، صـرخت.. لـم يسمعني أحد.. كلهم أغلقوا آذانهم وفصلوني عن عالم الأحياء.. دفنوني في بيت الخلاء وأنا حية أتنفس.

أضـافت ميـادة: فـي اليـوم الثـاني، تجمعـن النسـاء فـي البيـت، شاهدتُ امرأة ترقبني عن كثب، وما بين فترة وأخرى تمسح فمها وأنفها بمنديل كان في يدها.. نظرتُ إليها، أسدلت حجابها على وجهها وخرجت من المجلس، وهي تهمس بكلمات لم أفهمها، والنساء يضحكن ويتهامسن.

دلفت امرأة ترش العطر في المجلس، على الملابس وعلى الجدران.. ورائحة البخور تملأ المكان.. تقدمت إحدى النساء وحملت المبخرة، رفعت ثوبها وقرّبت الدخان المتصاعد حتى لامس جسدها.. وحين وجدتُ نفسي وحيدة بينهن، تذكّرت أهلي، وطاف بذاكرتي الرجل الذي تزوجني.. تفاجأت أني لا أعرف اسمه.. وعندما حاولت أن أسأل عنه، تلعثمتُ واحترتُ عمّن أسأل.. فكّرت أن أتركهن وأخرج.. فجأة دخلت المرأة التي كانت تراقبني، وقفت في طريقي ومنعتني من الخروج، قالت لي أنه لا يجوز للأجنبية أن تنكشف على الرجال.. أحسستُ أن في أعماقي صرخة مقهورة، وشعرتُ أني سأنفجر مثل بركان في لحظة

تالية، لكني وجدتُ نفسي مخنوقة برائحة العطر والبخور، ضاع صوتي.. ضاعت حياتي.. جلستُ في ركن جانبي وانخرطتُ في بكاء مرير.

فيما بعد تعرّفتُ على المجلس وعلى غرفة نومي، ولم يعد قدوم النساء يُربكني.. اعتدتُ هذه الوجوه وألوانها، وضحكات النساء الاستفزازية.. لكن ما كان يؤلمني هو فراق أهلي ونسيانهم لي، حتى أصبحت كالعنزة الجرباء في حوش البيت الكبير.

تعودتُ أيضاً منظر النار في الموقد، وعليها ملعقة كبيرة، وبداخلها حب القهوة الأخضر، والمرأة تُحمّصها ثم تدقها حتى تصبح كالبرغل الخشن.. تضعها في الإبريق الذي يغلي فيه الماء على مقربة من النار.. ثم تقوم إلى موقد آخر ترق العجين وتخبزه على الصاج.

وعند كل فجر كنت أسمع صوتاً جهورياً يتردد داخل الحوش الكبير.. الصلاة، الصلاة .. كان عليّ أن أسرع إلى الوضوء والصلاة مع المرأة في مسجد الحوش.. كنت أقلّد المرأة في كل حركاتها، وأتظاهر بأني أعرف الصلاة.. كنت ارتجف وأبكي وأنا واقفة في الصلاة من سطوة الرجل الذي انفرد بسجني، وأبتهل إلى الله أن يميتني، أو يخلّصني مما أوقعني فيه والدي.

في أيامي الأولى بعد وصولي هذه الديرة، لاحظتْ المرأة أن الدموع لم تنقطع من عينيّ.. قلت لها بأني أرغب بالعودة إلى أهلي.. فقالت وهي تغادر غرفتي: "إنتِ امْسيكينة يا بعد روحي".

فيما بعد عرفتُ الكثير.. عرفتُ أن الرجل الذي أقيم في بيته والذي لم أره منذ وصولي إلى هذه الديرة، كان اسمه عبد الله.. وأن هذه المرأة هي زوجته جزعة.. وأن والده الذي تجاوز الثمانين من عمره يقيم معه في حجرة جانبية.

بعد ظهر أحد الأيام، ارتديتُ عباءتي التي أحضرتها لي جزعة في وقت سابق، أخفيتُ وجهي حتى لا يعرفني أحد، وتسللتُ إلى الباب الخارجي.. كانت الشمس حارقة، أحسستُ وأنا أقف قرب الباب أن جمراً يلسعني في كل أنحاء جسدي، وعندما حاولتُ أن أفتحه سمعتُ أحدهم يصرخ من داخل الغرفة: "مَن هناك؟".

تشنّجتُ عروقي ووقفتُ في مكاني متسمّرة، سقطت العباءة عن رأسي، وقبل أن أرتديها ثانية ظهر رجل أمامي.. نظرتُ إليه ونظر في وجهي.. عرفتُ أنه عبد الله زوج جزعة، ذلك الرجل الذي كان يقود السيارة التي نقلتني إلى الصحراء، سألته عن زوجي الذي لم أره ولم يسأل عني!، فقال بأنه غادر الديرة بعد أن طلقني في اليوم الثاني لوصولي الديرة.. وقبل أن أتفوّه بكلمة واحدة أضاف: "حِنّا بدو وما عندنا حريم تنكشف على الريابيل مثل ديرتك".

بكيت وحاولت الاستفسار عن سبب طلاقي، لكنه لم يسمع كلامي، ووجدت نفسي في حوش الحريم أنتف شعري بيديّ، ألطم وأمزق وجهي.

عند المساء دخلت جزعة وجلست أمامي، وأنا أفكر بطريق للخلاص من هذه الحياة.. قالت: "لا تبكين يا بعد قلبي.. كل شيء بالدنيا قسمة ونصيب.. ونصيبك مع العود.. الليلة دخلْتك على العود".

كلماتها كانت كوقع الصاعقة على نفسي، ومع ذلك لم أفهم ما عنت بكلمة العود.. لكنها أخبرتني أنها تعني الرجل الكبير السن، وتقصد والد عبد الله.. لم أصدّق، وعدت للطم وجهي من جديد، فقالت توضح الأمر بأنها عرفت أن عبد الله اتفق مع أحد رجال الديرة من الذين رافقوه في رحلته إلى الشام، أن يعقد قرانه عليّ في الشام، على أن يُطلقني بعد وصولي إلى الديرة ليزوجني لوالده العود.. كما أخبرتني أنها كانت تعتقد أن زوجها عبد الله هو الذي سيتزوجني.. لهذا أضمرت لي العداء منذ وصولي.. لكن جزعة عرفت الحقيقة متأخرة بعد أن أقنعها عبد الله أنه فعل ذلك من أجل والده.. فهي رغبة العود وأمنيته الأخيرة في الحياة، كما قال له المطوّع سابقاً.

أحسستُ إحساساً أكيداً بأني ميتة لا محالة، وأن لا مجال للحياة أكثر مما عِشت.. صرختُ، تألمت، بكيت من أعماقي، لكن أحداً لم يأبه لدموعي.. عبد الله لم يترك لي مجالاً للتفكير.. دلف بعد

ساعة زمن حجرتي وهو يمسك بيد والده العود، وأمسكني من يدي وأنا أتراجع إلى الوراء، ووضعها في يد والده.. وقال: "مبروك العروس يا بوي".. خرج وأغلق علينا الباب من الخارج.

قبل الموت كانت الصحوة الأخيرة.. سحبتُ يدي من يده، ابتعدتُ عنه وأخذتُ أنتحب، أبكي وأصرخ، أبكي وأنتف شعري، أبكي وأصمت.. لكن العود لم يأبه لدموعي، بقي واقفاً يتكئ على عصاه محدودب الظهر وكأنه منجل.. ثم قال بصوت ضعيف ومتقطع: "علامك يا بنيّه.. إنتِ زينه، والدموع ليلة تعرسين ما هي بزينة، الزواج الحلال يا بْنية ما هو بْعيب ولا بْحرام".

كنتُ عاجزة عن أي تصرف، ولم أدرِ ماذا فعلت بعد ذلك.. لكنني صحوت وعبد الله يضربني بعنف على وجهي، يهدّدني بالموت والرمي في الصحراء إن خالفت أوامر والده العود ولم ألبّي رغبته.

رفضّتُ بكل قوتي وجوارحي.. تمردّتُ، وفضّلت الموت على الحياة.. لكنه كان الأقوى، تغلّب على قوتي وعلى إرادتي.. مزّق ثيابي، جرّدني من كل ملابسي وأنا أصرخ.. ألقى بي على السرير ثم أمسك بوالده وطلب منه أن ينام فوقي.. قال له: "هذه حلالك يا بوي على سنة الله ورسوله.. ارتوي يا بوي وما يهمك معاندتها.. إنت تعرف الحريم، يتمنّعن وهن الراغبات".

مثل شاة مرّت سكين حادة على رقبتها، كنت أتحرّك تحت العجوز الذي رفع ثوبه، وضع طرفاً منه في فمه، ونام فوقي في محاولة لتقييد حركتي.. لكنه لم يفلح في محاولاته.. كنت أقاوم بحرارة الموت قبل أن يلطمني عبد الله لطمة قوية على وجهي، دخلتُ على أثرها في غيبوبة لا أدري كم دامت.

حين صحوت، أحسستُ أني أتنفس بصعوبة.. فتحتُ عينيّ.. غاصت نظراتي في وجه رجل عجوز.. شعرتُ شعوراً عميقاً أني أحلم، وأنني تحت ثقل كابوس يجثم على صدري.. عيناي كانتا مرهقتين، يحتضنان تعباً لا نهاية له، ما أن استوعبتُ ما جرى حتى شعرت بتعبير غريب، جريحة ومليئة بنداء استغاثة تُطلقه امرأة تعاني نزعها الأخير.. حاولت تحريك يدي لأزيح ثقله عن صدري، لم أستطع.. يداي كانتا مقيدتان فوق رأسي بطرفي السرير، وساقاي منفرجتان ومربوطتان كل واحدة في اتجاه من زوايا السرير أيضاً.. حاولتُ بكل قوتي إزاحته عن جسدي.. أحسستُ أنه لا يتحرك.. كان جسده بارداً كالثلج، وأنا عارية تماماً.. تحركتُ لا شعورياً، واهتززتُ في محاولة لإزاحة ثقل جسم العجوز عني.. تحرّك ووقع جانبي كتلة واحدة، ثم سقط من فوق السرير على الأرض بلا حراك.. صرختُ، صرخت وصرخت.. بعد حوالي الساعة فُتح الباب ودخل عبد الله.. وحين شاهد والده مُلقى بجانب السرير، ألقى بشرشف على جسدي وحاول مساعدة والده، لكنه عرف أنه فارق الحياة منذ ساعات

خلت.. صرخ في وجهي: "إنتِ حليلته، إيش يهمّك لوْ بلّ ريقه وارتوى منك".

كنت غارقة في نُواحي ودموعي وعبد الله يفك قيودي، ويقول: "استري عورتك وقومي عند الحريم".. وعندما خرجت، شعرتُ براحة كبيرة بعد الكابوس الذي جثم على صدري طوال الليل.

بعد أن تم دفن العود، عرفتُ أني سجينة الحوش إلى الأبد، حتى لا يعرف أحد بحكايتي، وعرفتُ أني لن أغادر البيت إلا إلى القبر.. فأنا أرملة البراري والصحاري والديرة التي لا تعرف عني شيئاً، كما لا أعرف عنها أي شيء.. أنا امرأة ماتت منذ أن تركتُ أهلي، لكنني محسوبة على الأحياء.

***

شعرتُ وميادة تتحدث وتستعيد لحظات عمرها القصير، أن سنوات عمرها الحقيقي امتد واتسع بمساحة الصحراء، وأن لا مجال لها للهروب أو انتظار الموت.. الحل الوحيد الذي كان يدور في رأسي بأن تضع حداً لحياتها بنفسها، حتى تنتهي من هذا العذاب.

رحمة التي كانت تستمع للحكاية مثلي، لم تُفاجأ، لكنها آثرت الصمت وأخفت دموعها.. فهي تعرف حكايتها.. قالت: "الله يصبّرك يا ميادة على بلواك، اصبري، الصبر مفتاح الفرج".

تلك اللحظة أحسستُ أن رحمة وهي تتحدث، ترسم خطة لمستقبل ميادة، كان ذلك واضحاً من خلال نظراتها، لكنها أخفت ما أضمرته، وقالت: "الله أقوى من كل الظالمين".

مسحت ميادة دموعها وقامت متثاقلة، ثم لبست عباءتها فوق ثوبها وقالت:

- الله يخفّف عنكم مثل ما خفّفتم عني همومي.. لو تعرفوا كم ارتحت بعد ما حكيت إللي جوّاي.. لكن أرجوك يا دكتور، هذا سر، لا أريد أن يدري به أحد من أهل الديرة، عشان يسمح لي عبد الله بالخروج من البيت مرة ثانية.

قبل المغرب عادت ميادة إلى بيتها تحمل معها يأسها وأحزانها، بعد أن حمّلتني همومها.. عند الباب راح كلب يُشمّم رائحتها ويلاحقها حتى باب بيتها.

بعد لحظات شعرتُ أنه جاء دوري للصراخ.. أحسستُ أن ميادة حمّلت كاهلي حملاً ثقيلاً لا يمكن السكوت عنه.. واحترتُ فيما أفعله من أجلها!.. فالأمير جفران يعرف كل صغيرة وكبيرة عنها، كما يعرف التفاصيل الدقيقة التي مرت بها منذ خروجها من الشام حتى وصولها الديرة.. أيقنتُ أنه لم يبق لنا إلا الهروب من الصحراء، قبل أن يقتلنا ظمأ الغربة، ونُدفن غرباء بلا أكفان.

***

حصّة

للمرة الثالثة تزوج الأمير جفران، دون أن تنجب الأميرة حصّة منه أولاداً.. في أوقات فراغها كثيراً ما كانت تزور البيت أو العيادة، تجالس زوجتي نعمة وتتسامر معها، تداعب أبنائي وتتسلى معهم.. وكثيرة هي الأوقات التي تقلب لحظة الفرح إلى واحة من الهموم والأحزان، وكل واحدة تشكو همومها للأخرى.. في المستوصف كانت تجلس الساعات الطويلة مع الممرضة رحمة.. كما كانت تجالسني، وتحكي كل ما يخطر ببالها بلا تحفظ.. فهي الأميرة المشهورة بابتسامتها ومرحها ومجاملتها للجميع.. كانت تجلب معها في بعض الأحيان خبز الشعير، فنأكل معاً، نغمس الدوح المنفوخ مثل الكعك بالشاي، ونشرب اللبن الرائب المليء بقطع الزبدة.

قبل أيام عدة جاءت الأميرة حصّة إلى المستوصف، ولم يكن به أحد غيري، جلست على مقعد قبالتي وراحت تنظر إليّ من وراء الغطاء الخفيف الذي يحجب وجهها، استطعتُ أن أرى عينيها العسليتين الغارقتين في بئرين من الكحل.. وحين رأتني أنظر إليها، رفعت البرقع عن وجهها وقالت: "إنت مو غريب عنا، إنت صرت واحد من أهل الديرة".. وكما ستارة مسرح تُرفع كشف الحجاب عن وجه مستدير، يطفح جمالاً وجاذبية.. عنق طويل وصدر رخامي يميل إلى السمرة المشبّعة بأشعة

الشمس.. أخفضتُ بصري ورحت أحدّق في الأرض.. فجأة تحرّكت على مقعدها بعصبية وقالت: "علامك تشيح بنواظرك عن ويهي!".

فاجأني السؤال، تلعثمت.. قلت:

- أنا ما أقدر على النظر بوجه الأميرة.

أخفت ابتسامة ظهرت على ملامح وجهها، أسدلت الحجاب على وجهها ثانية، وقالت بمكر:

- طالما تعرف قَدر نفسك، إذن علامك تخرم البرقع بنواظرك!.

شعرتُ بانكماش أمام جرأتها، ولم أدرِ ماذا أقول أو أفعل.. حملقتْ في وجهي ثانية.. أحسستُ أن نظراتها تغرز في وجهي كمخالب قط.. قالت بثقة وتعالٍ: "إنت ما تقول الحقيقة يا دكتور".

رغم أنها استفزتني ثانية، إلا أني تجاهلتُ نظراتها المسلّطة على وجهي.. أحسستُ أن حريقاً بدأ ينشب في أعماقها.. وقفتْ فجأة وتوجّهت نحو الباب، وقبل أن تغادر قالت بشموخ الأميرة المتعالية:

- أظن أنك نسيت أني أميرة الديرة. وبصوت خافت أضافت: "بَس حبّيت أذكّرك".

مرّ أكثر من شهر على تلك الزيارة ولم أرها.. وحين قابلتها بطريق الصدفة في الطريق، استوقفتني وقالت: "علامك يا

الدكتور مجافي بيتي!".. قلت وأنا ابتسم: "استغفر الله، أنا مش من مقام الأميرة".

عبست لحظة ثم ابتسمت نصف ابتسامة، وقالت وكأنها تُذكّرني بآخر لقاء وتعاتبني: "أنا سامحتك، بس أوعى تعود لفعلتك الشينة".

اعتذرتُ ثانية.. أسبلتْ عينيها، وكأنها استراحت لجوابي هذه المرة، وقالت وهي تبتسم بفرح طفولي:

- إذن ليه تكذب عليّ، وتتجاهل جمالي إللي حقّيته بنواظرك زين!.

كطفل وجد لعبته بعد طول ضياع، كان فرحي تلك اللحظة، شعرتُ أن قيوداً فُكّت عن معصمي، ولا أدري لماذا شعرت بهذه السعادة.. قلت لها بأنها أجمل من كل نساء الديرة.. انفرجت أساريرها هي الأخرى وشعرت بفرح عارم.. وقالت بدلال:

- يكفي إللي تقوله يا دكتور، أنا مش حِمِل كلامك الزين.

وانسحبت من أمامي كنسمة هواء.. وقبل أن تبتعد سمعتها تقول: "ابقى حود عندنا بالشق اشرب القهوة يا الدكتور".

أيام أخرى مرت قبل أن تقودني قدماي للمرور أمام بيتها الطيني.. كانت الساعة تقارب العاشرة صباحاً، ولم يكن أحد من الرجال في الديرة غير المدرّسين.. كلهم ذهبوا لاستلام رواتبهم الشهرية.. فجأة فُتح باب الحوش وأطلّت الأميرة.. كانت تحمل

بين يديها وعاء به ماء، وجهها كان مكشوفاً.. بدت مرتبكة عندما رأتني.. أسرعتُ بخطواتي حتى ابتعد عن المكان.. نادتني:

- إنت يا الدكتور.

توقفتُ ونظرت إليها.. كانت تقف خلف الباب المفتوح جزءاً منه تلف جسدها بعباءة سوداء، قالت: "ادخل يا دكتور، أبغاك في عوزة".

تردّدتُ، لكن الأميرة مدت يدها من خلف الباب لمصافحتي.. شاهدتُ أكثر من عشر أساور ذهبية في معصمها.. مددتُ يدي لمصافحتها، قالت: "علامك حيران!، ادخل، أبغاك في عوزه".

كانت أرضية الغرفة مفروشة بالبسط الملونة والأغطية الصوفية المتناثرة على الجوانب.. أضافت: "أبغاك تصلح ماكنة الخياطة".

كثيراً ما كنت أقوم بمثل هذا العمل داخل بيوت الديرة.. فأنا الدكتور وأنا الممرض، أنا الأقرع الثاني ومهندس الديرة الذي لا أعجز عن عمل يُطلب مني.

جلستُ على الأرض، تشاغلت في إصلاح الماكنة التي كانت موضوعة على منضدة صغيرة في الزاوية.. في البداية حكت الأميرة كلاماً فيه نعومة وسلاسة.. خلطت فرحها بالحزن الذي يجرح القلب، قالت إنها تشعر بالوحدة، لكنها تشعر بالراحة والحرية أيضاً.. ثم تشاغلتْ بترتيب البيت وهي تلفُّ جسدها

بالعباءة.. عادت بعد لحظة ووقفتْ أمام المرآة التي كانت تعكس صورتي في عينيها كما تعكس صورتها أمامي.. شعرتُ أن النار بدأت تتأجج في الغرفة.. كنت أرى الدوامتين العسليتين في عينيها الحائرتين الغامضتين كعيني عرّافة من وراء الحجاب.. وحين كانت تلتقي النظرات كانت تُغلق عينيها نصف إغلاقه، وكأنها تستريح من عذاب جسدها الذي كانت تحرّكه بإثارة واضحة.

سيطر الوجوم على الغرفة والأشياء، وحدها الرياح كانت تُحفحف في ذاكرتي كأجنحة الطيور.. استيقظت الحواس فجأة، واستحضرت التفاصيل الصغيرة، الأحلام أيقظت الأشياء الغافية في الأعماق.. شعرتُ أن وحدة البراري تثير الشهوة، والخلوة توقظ الجنس من غفوته وتبعثه للحضور.. تزداد حاجة المرء إلى العاطفة.. تنبّهتْ الأميرة إلى باب الحوش المفتوح، قادها الشيطان ومشت إليه بخيلاء، أغلقته بهدوء، ثم عادت ووقفت أمام المرآة ثانية، فجأة خلعت عباءتها وألقت بها على الأرض، ولا أدري تلك اللحظة لمَ تذكّرت الحيّة وهي تخلع ثوبها لتستعيد عمرها وشبابها من جديد.. أخذت ترش عطر الياسمين على جسدها وفي أرجاء الغرفة، ثم أدارت وجهها نحوي وقالت: "إنت مو رِيّال.. ولاّ أنا ماني زينه!".

نظرتُ إليها مباشرة، مثل القطة المتحفزة للانقضاض على فريسة كانت تقف، نظرتُ إلى الباب وتوجهت نحوه.. قالت: "إذا تمنّعت أجمع عليك أهل الديرة، وإنت تعرف العاقبة مو زينة

بحقك".. وتقدّمت مني خطوة، تحجّرتُ في مكاني.. وفي لحظة مفاجئة أسرعتُ نحو باب الحوش وفتحته، وقبل أن أخرج من البيت أوقفتني وقالت وهي تبتسم: "علامك يا الدكتور!، أنا حبّيت اختبرك إذا كنت تخون بنات الديرة!، حبّيت اختبرك بعد ما حقّيت بنواظري مريم تلازمك في البيت ورحمة في العيادة، غير إنك طلعت خويّ لأهل الديرة.. وجزا أمانتك تستاهل كل خير، ومني لأم البزور هذي الهدية ما من وراها جزية".. وخلعت ثلاث أساور من معصمها، ثم تناولت عقداً ذهبياً كان موضوعاً قرب المرآة ووضعتهم في يدي، ومع أني رفضتُ إلا أنها أصرّت، وقالت إنها "هدية لأم البزور".

في الطريق وأنا عائد إلى بيتي، رحت أفكّر كيف جرت الأمور! وماذا لو قادني الشيطان وانزلقتُ في مستنقع لا أعرف نتائجه!، وكيف ربطتُ مستقبلي بهؤلاء الناس الذين يعيشون ببساطة متناهية ويطفحون بالذكاء، عبر هذه الصحراء اللامتناهية المسوّرة بالفراغ!.

في البيت شاهدتُ زوجتي نعمة تغسل ثياب الأولاد وتغني موالاً حزيناً.. تناولت الأساور الذهبية ولوّحت بها أمام ناظريها، قلت "إنها هدية ما مِن وراها جزيّة".. ابتسمت ولم تصدق، وعندما طوّقتُ عنقها بالعقد الذهبي قامت وقبّلتني قبلة سريعة، وأخذت تسألني عن مصدرها وعن سبب إهدائها.. قلت: "بدون مناسبة، إنها هدية من الأميرة حصّة".

تسمّرت نعمة في مكانها، سرت قشعريرة في جسدها، صمتت دقيقة وهي تُقلّب في رأسها الأفكار التي داهمتها فجأة، وقالت مستغربة وكأنها تحدث نفسها: "هدية بدون سبب!".

لم تصدّق أن الأميرة قدّمت صيغتها بلا مقابل، قلت حتى أبدّد شكوكها:

- عرضتْ الأميرة بعض أساورها للبيع، وعندما قلت أنا أشتريها، قالت خذها هدية لأم عيالك، ولم تقبل ثمناً لها.

لم تصدق نعمة كلمة واحدة مما قلت، نظراتها كانت تؤكّد شكوكها.. كما أن ارتباكي أمامها كان يؤكد ما حدست به، ومع ذلك كظمتْ غيظها، تجاهلتْ الموضوع بخبث، وتصنّعت الابتسامة أمام بريق الذهب، وقالت:

- ربنا يعطيك الصحة ويخلّيك، وتجيب أكثر.

***

طيور الغربة

قبل غروب الشمس، حام سرب من الطيور الملونة حول البستان.. جاء من الغرب ودار عدة دورات فوق الأشجار، ثم حطّ على شجرة أثل كبيرة.. التقطت أذناي حفيف أجنحتها، وهي تهبط كصوت الرياح التي تحمل رمالاً.. اكتستْ الشجرة وتلونت بألوان الطيور الجميلة، بدا المنظر خلاباً والطيور تستريح على الأغصان التي اختفت تحت الأجنحة.. لم أرَ مثلها سابقاً، طيور ملونة غريبة عن المكان، ضالة في الزمان والمكان.. كل طائر يحمل في جناحيه كل ألوان قوس قزح.. الأزرق، الأخضر، الأحمر والأصفر.. ذات مناقير طويلة وملونة أيضاً.

كثيراً ما كانت الطيور تأتي في موسم الربيع.. تُحلّق عالياً ثم تنخفض وتبيت على رؤوس الأشجار العالية، وفي الصباح تواصل رحلتها نحو الشرق.. أما هذه الطيور فلا أدري إذا كانت من الطيور المهاجرة التي تأتي في مثل هذا الموسم من كل عام بحثاً عن الدفء، أم أنها ضلت طريقها!.. المهم أنها كانت أجمل من كل الطيور التي رأيتها في حياتي.. وكان حجمها بحجم الحمام البري، لكنها بدت أكبر وهي تحلّق عالياً في السماء.

كنت والأمير جفران جالسين تحت شجرة نخيل.. لم يشأ أن يثير ذعرها.. تركها تمكث بهدوء في المكان الذي اختارته، وقال: "يا هلا بطيور الجنة.. بإذن الله يكون الليلة الصيد وافر"، وجلس

يراقبها بهدوء وفرح.. ثم أضاف: "غريب أمر هذه الطيور.. أنا أعرفها زين.. تعيش مجموعات وتطير مجموعات، وتحلّق أسراباً مع بعضها البعض تحت قيادة واحدة، ويبدو قائد السرب ظاهراً للعيان وهو يحلق في المقدمة، فارداً جناحيه في السماء، وكأنه الحاكم المطلق وبقية السرب جنوده.. وحين يختار مكاناً يهبط عليه، يحط على قمته.. وتهبط بقية الطيور على الأطراف حوله، لكن لا أحد منها يهبط في مكان أعلى منه.. ولا تُغرّد هذه الطيور إلا أثناء طيرانها وتحليقها في الجو.. لكنها تموت وهي صامتة".

بعد الغروب زحف الأمير نحو سيارته، وعاد يحمل بندقية صيد ومصباحاً يدوياً، مع علبة من طلقات الدمدم الخاصة بصيد الطيور.. جلس القرفصاء تحت شجرة الأثل، ناولني المصباح وطلب مني أن أسلّط ضوءه على الطيور واحداً بعد الآخر، وأتجنب الإضاءة على قائد السرب، الذي جلس بشموخ في أعلى الشجرة.. وكنت كلما سلطتُ ضوء المصباح على طائر، يُطلق الأمير جفران عليه النار.. وكلما سقط طائر، تلاحقه بقية الطيور بعيونها حتى يرتطم بالأرض.. لم تثر الطلقات ذعر الطيور وظلّت ساكنة.. لم يغيّر أحدها مكانه ولم يتحرك.. اصطاد الأمير تسعة طيور.. أحسستُ أن هذه الطيور تتبع قانوناً يفرض نفسه عليها.. غريب أمر هذه الطيور فعلاً.. الموت يحصدها وهي تنظر وتراقب، وتموت صامتة غريبة.. غريب ما يخطر ببالي أيضاً.. غريبة أفكاري التي تقفز وتحلّق لتلاحق المغتربين الذين

يفرون من الموت إلى الموت.. لاهثين وراء قوتهم، غير عابئين بغربتهم.. يُغنون للحياة، ويتصيدهم الموت غرباء بصمت أيضاً.

اصطاد الأمير أكثر من عشرين طيراً قبل أن يفزع قائد السرب ويطير.. وحين رفرف بجناحيه، هبّت الطيور من رقادها فجأة وحلّقت عالياً خلفه، والأمير يطلق النار عشوائيا باتجاهها.. سقط واحد، اثنان، ثلاثة.. أخذت تصارع الروح وتتخبط بدمائها قبل أن تهدأ حركتها.

جمعتُ مع الأمير طيوره التي اصطادها، ألقاها في مؤخرة السيارة، ثم غطاها بكيس شعير فارغ، وأخذ يتمشى نحو باب البستان.. نظر إلى ساعته، لم يرَ الوقت جيداً.. ضغط على زرّ صغير في الساعة فأضاء ضوءً خفيفاً.. وحين شاهد الوقت تأفف وقال: "إنت يا الدكتور في أمان الله، أنا أبغى آخذ حاجة من البستان".. ثم رفع ثوبه حتى وسطه، وجلس القرفصاء على الأرض.. بينما تابعتُ طريقي خارج البستان.

قبل أن أبتعد خطوات قليلة، شاهدتُ ظل أحدهم يتخفى عند الأسلاك الشائكة التي تحيط بالبستان.. أوجستُ خيفة وراودتني الظنون، وجلستُ متخفياً أراقبه عن بعد.. رفع الرجل سلكاً شائكاً وتسلل من تحته إلى داخل البستان، وغرق في الظلام.

مرّت دقائق قبل أن أسمع صوت الأمير خافتاً من بين الأشجار: "علامِك تأخرتِ".. أجاب صوت نسائي: "خفت أن

يراني الدكتور، بقيت أراقبه حتى ابتعد".. تأكدتُ من ظنوني.. كانت جميلة تأتي الأمير ليلاً داخل البستان بلباس الرجال.. وكان يأتيها نهاراً داخل بيتها بثياب الحريم.. شبّ حريق في داخلي، شعرتُ أني أغوص في مستنقع برائحة كريهة.. راودتني نفسي أن أركض إلى أبي راجح وأخبره عما يدور من وراء ظهره، لكنني وجدت نفسي استرق السمع لما يدور من حوار في الظلام.. قال جفران إنه أحضر لها مجموعة من الهدايا والعطور ومواد التجميل خلال سفرته الأخيرة إلى باريس.. فاستعجلت الحصول على الهدايا والعودة قبل أن يكتشف والدها غيابها.. صوتها علا فوق صوته، تودد لها، نهرته وأمرته أن يبتعد عنها، ثم قفزت هاربة من بين يديه في لحظة مفاجئة عائدة إلى البيت، وتركته على جمرٍ من النار يغلي ويتعذب.

في اليوم التالي قابلتُ جميلة، ألمحتُ لها أني أعرف ما يدور داخل البستان ليلاً، وإني على استعداد أن أخبر والدها إذا لم تتراجع عما تفعله.. قالت إنها لا تخاف أحداً، وإنها ستذل الأمير حتى يركع لها، كما ستأخذ منه كل ما تستطيع من مال وذهب وهدايا دون أن تُفرّط بنفسها.. وأضافت: "ليكن بعلمك يا أبا سعيد أني لن أعود إلى الديرة في العام القادم، لأني وجدت العريس المطلوب.. وحتى موعد الإجازة سأبقى جميلة والأجر على الله".

***

بقايا امرأة

في المستوصف كنت جالساً وحدي أفكر فيما وصلت إليه الأمور.. فُتح الباب الخارجي وولجت رحمة عابسة الوجه.. أنقذتني من كابوس أفكاري وقالت:

- هل تريد أن تسمع المزيد عن ميادة يا دكتور!. وزمّت شفتيها.

شعرتُ أن رحمة تعرف الكثير عن ميادة، وأنها تكتم ألماً وتخنق غيظاً، بدت ملامح الغضب واضحة على وجهها.. رحمة ورغم كل تصرفاتها المشينة، إلا أنها كانت تشعر مع الآخرين وتتألم معهم.. ومع أنها عاشت ظروف القرية وأحزان ميادة، إلا أنها كانت تخفي حقداً أعمى على الأمير جفران، ترى فيه خطيبها الذي أوقع بها، ودفعها للسقوط من المجتمع..

- هاتِ ما عندك. قلت لها بغير اكتراث

سكبت لنفسها فنجان قهوة سادة من الدلة التي أمامي، وجلست على مقعد قبالتي.. صمتت لحظة، تأففت من الوضع الذي آلت إليه وقالت: ميادة علّمتني الكثير.. قصتها التي عرفتها منذ سنوات عدة أعادتني إلى رشدي.. شعرتُ أني أعيش حكايتها لحظة بلحظة، كما عرفتُ أن عمر الإنسان لا يقاس بالسنوات، إنما يقاس بلحظات الألم والسعادة التي عاشها، فأنا لا شيء فيما

عملتُ في حياتي بالنسبة لميادة وما فعلوه بها.. لهذا اقتنعتُ بالتوبة وقرّرت أن لا أخطئ أبداً فيما تبقّى لي من عمر.

- بركاتك يا شيخة رحمة. قلت.

تجاهلتْ ما قلته.. أضافت وكأن ميادة لم تبرح ذاكرتها:

جدران الحوش في بيت ميادة كما تعلم عالية.. وفي سقوف الغُرف مراوح كبيرة.. الغرف شبه فارغة إلا من بعض الأسرّة والخزائن ووسائد على الأرض مسندة على الحائط، والغبار تحت الأسرّة في كل مكان.. ميادة كانت قطعة من هذه الأشياء، جسداً ميتاً، شمسها لم تُشرق عليها منذ أن غادرتْ بلادها.. لا شيء إلا الذباب والناموس والحر والفراغ.

المكان لم يعد له نكهة رائحة البخور، وما كان يشغل ميادة تنهدات جزعة زوجة عبد الله وصرير سريرها، والأنين الذي كانت تسمعه في الغرفة المجاورة في الليل، وهي الأرملة العذراء التي تنام وحيدة في الظلام.

تناست ميادة هذه الأحداث بعد أن تعوّدت على سماعها، وراحت تعيش مع أحلامها.. ما أن تستيقظ حتى تعود للنوم لتستعيد أحلامها ثانية.. قالت لي ذات يوم أنها كانت ترى فيما يرى النائم أنها تعيش بين أمها وأبيها وإخوانها وأخواتها.. وقد أكدت لي جزعة أنها سمعت صوتها أكثر من مرة وهي تناديهم واحداً واحداً.. فاعتقدت أنها فقدت عقلها وجُنّت.. وفي فترة لاحقة

ما عادت ميادة تذكر من الحوش شيئاً.. كانت تتذكر الحارة التي عاشت فيها مع أهلها، وتستعيد صورة والدها.. كانت الصورة تظهر وتختفي ولا تكاد تتبيّن ملامح وجهه، تتذكر ألوان ملابس كل أخ وفستان كل أخت، ولون المنديل الذي تلبسه والدتها.. كما تتذكّر أخاها الصغير وهو يركض حافياً خلف السيارة التي أقلّتها إلى مقصلة الصحراء.

في ليلة مظلمة حلمت ميادة أنها كلبة ضالة في الصحراء، تركض وسط الرمال، الكلاب تنبح وتطاردها وتنهش كل أنحاء جسدها.. أفاقت مذعورة، بعدها كرهت النوم وصارت تخاف منه.

كثيراً ما رأيتها في النهار تجلس في غرفتها على السرير جانب النافذة الصغيرة المطلة على حوش الدار، في ناحية قريبة من الدجاج الهاجع تحت حرارة الشمس.. الجو يُخدّر أعصابها.. تدير مفتاح المروحة، تبدأ بالنواح والنحيب.. نحيبها ونشيجها لم يتعدّ باب غرفتها، ويطلّ من وجهها رعب مسكون بالألم وهي تنوح:

"أنا يمّه غريبة الدار بين الصحرا والرمال..
أنا يمّه حزينة، ولا عندي أخ ولا عيال..
أنا يمّه موجوعة، وليل الغربة عليّ طال..
وليه يا بويا ضيّعتني، وأخذت مني راحة البال"..

ساهرة مجروحة، تنوح ميادة وتبكي ليلها ونهارها.. يطول ليلها كما يطول نهارها.. ويطول الليل تحت عباءتها السوداء، والبرقع الذي علّموها كيف تلبسه حتى لا تنكشف على الرجال.. وحنجرتها تقدح الآه بعد الآه..

أضافت رحمة: في الليل "كما قالت لي ميادة"، كانت تحل ضفائرها وترخيها على الأعتاب، وتعود للنواح من جديد.. كانت كالقطة التي تموء بحزن وتبحث عن صغارها، تسأل نفسها أحياناً.. "أين أنا؟".. وتعود بذاكرتها إلى الوراء لتتذكر كل شيء.. ثلوج الشتاء في بلادها التي استبدلتها بالرمال.. التين، الأشجار، الزيتون والعنب الذي صار من ثمار الجنة المشتهاة.. تتمنى لو بقيت فقيرة ومُعدمة ولم تراودها الأحلام ببريق الذهب.. تتساءل، ماذا ينفع ذهب المرء وماله إذا فقد سعادته ومن يحبهم!.. تعود لنواحها من جديد وتتساءل في قرارة نفسها إذا كان ما زال أهلها أحياء يتذكرونها.. هي تتذكّرهم واحداً واحداً، تذكر كل شيء عنهم.. تذكر أيضاً عيون الجيران وهي ترمقها حسداً وغيرة، وهم يلّوحون لها بأيديهم والسيارة تبتعد، وقلبها يهبط ويرتفع وسط الصمت الذي برقعها في عالم الظلم والظلمة.

دموع الفرح اختلطت في عينيها بدموع الفراق.. في طريقها من الجنة إلى الجحيم كانت يائسة وحزينة، وهي تستعيد ذكرياتها وتجتر ماضيها وحاضرها، وتندب الأيام الباقية من عمرها.

فيما بعد التجأت ميادة إلى الله ليخلّصها من هذا العذاب، وأسلمت نفسها إليه.. تعوّدت أن تقوم من الفجر بصمت تتوضأ وتصلي الفجر، تحلب الأغنام وتُقدم العلف للدجاج، توقد النار وتتركها مشتعلة على مهل.. تُكنّس حوش الدار، تُحمِّص القهوة وتغليها، تُقطّع العجين وتخبزه على الصاج أرغفة، أو تصنع منه أقراصاً وتضعها داخل الرماد، حتى تُشوى وتصبح دوحاً.. تخضّ اللبن وتستخرج منه الزبدة، تصنع السمنة والجميد.. وعلى الرغم من مرور الأعوام على تلك الليلة الفظيعة التي عانتها مع الزوج الميت، فإن الدموع في عينيّ ميادة لم تجف.

لم تبادر ميادة أحداً بالحديث، كانت تستمع ولا تتحدث إلا القليل.. وعندما كان عبد الله يسألها عن حالها أثناء وجودها في حوش الدار.. كانت تسيل دموعها على وجنتيها وتجيب: "بخير من الله، بخير يا عمي".

أضافت رحمة: الحزن كان يسكن ميادة، يسكن أهدابها، يسكن ثوبها الأسود وعباءتها السوداء، يسكن صمتها الطويل المطبق وليلها المظلم.. وحين كانت ترفع رأسها وتتأمل الأفق من خلال الحوش يظهر وجهها الوسيم وعليه مسحة من الحزن العميق، ويبدو لعينيها سحرٌ خاص، وتبدو جميلة على الرغم من كل هذا الوجع.

***

زنزانة الروح

موجة من المشاعر الحزينة اجتاحت كياني بعد أن عرفتُ حكاية ميادة، روحي، أحلامي أيضاً تمزقت وذبلت.. أصوات غريبة من وسط رمال الصحراء راحت تعوي في مؤخرة رأسي.. صدى أغنية موالها "غربة الروح" طنّت في مسامعي، فراغ، اغتراب ووحدة.. أوجاع متراكمة ومتراكبة غزت شراييني، امتدت بطول الصحراء وعرضها وأسرارها، وانسابت أوجاعها في عروقي..

الغربة حوّلتني إلى مخلوق يائس وفاشل.. كنت أعتقد أن في مدى عمري متّسعاً للحلم، لكن الحلم كان مطرّزاً بصفعات المواسم وتوجّعات الحياة.

الكفن الأبيض ما زال يتراءى لي، والمرحوم شريف يعود فيه إلى وطنه وحيداً داخل صندوقه الخشبي، تبكيه عيون أحبائه.. أرتجف وأصمت.. مقهور حتى العظم، مُغيّب.. وأخشى أن أرحل غريباً بلا كفن، أو أعود إلى وطني فأجد كل الذين أحببتهم قد رحلوا.

في الصحراء تبعثرت ذاكرتي، اتخذت مسارات متعددة في الزمان والمكان.. بدت ذاكرتي مشلولة، وحياتي بدأت وانتهت بخانة الصفر.. غربتي خرّبتني من الداخل.. هشّمت حنين العودة

وكسرت أحلام المستقبل، رمل وسراب وصحراء، رمل يملأ عينيّ وغبار يخنق أنفاسي.

بالأمس داهمتني أفكار غريبة، رحت أستعرض شريط حياتي.. دارت أحزان الغربة وركنت في مؤخرة رأسي.. الغربة علمتني كيف أحزن وأتوجّع، حطّمت معنوياتي وآلمتني بضربات جنونية غير متوقعة.. سراب ووجع جواني لا يطاق.

سنوات عجاف طويلة مرّت وأنا أختزن الهموم، استنطق الصحراء والرمال.. أعماقي تصرخ، تداخلت الرياح والرمال والعواصف في مجال الرؤية.. اختفى كل شيء، ولم يبق غير شجرة الأثل والصحراء والفراغ.. الفراغ ولّد في نفسي عقماً.. والغرباء انكسرت أعمارهم وتقلصت أحلامهم، دخلت أرواحهم في التيه، بعد أن فقدوا أي معنى للحياة.

أفكاري مشتتة.. دعوني أعود من البداية لأرتب نهايتي المتأخرة..

بعد سنوات قليلة من وصولي القرية، جاءني نقل من وزارة الصحة أكثر من مرة إلى مناطق أخرى، لكن الأمير رفض نقلي وأصر على بقائي سجيناً في ديرته.. مع مرور الأيام شعرتُ أن القرية توأمي، ولا حياة لي في مكان آخر غيرها.

حياتي كانت مجرّد رحلة من اللهاث.. أحلام غيبوبة.. لم يعد في الذاكرة غير صور مشوشة وباهتة.. زنزانة الروح، الغربة،

الكفن، مقصلة الصحراء وديرة الأمراء والعبيد.. كل شيء بات وشماً في الذاكرة، والحياة صارت فعلاً ماضياً.

أدمنتُ على خسارة العمر والروح، وأنستُ إلى انتصاراتي الوهمية في الصحراء.. وجدتُ نفسي أعيش بين أناس أكاذيبهم مُصدّقة، وصدق الأجانب عندهم أكاذيب.. كنت مُخرّباً ذاتياً ولم استطع الانفكاك عنهم.

أنا مشّوش الأفكار ولا أثبت على موضوع واحد.. لنبدأ من جديد..

زوجتي نعمة كانت طيراً من طيور الغربة التي تغرّد في الأفق بفرح، وتموت بصمت على الأرض.. نعمة التي كانت ذات يوم تمتلك وجهاً آسراً، وشعراً كالليل وعينين عسليتين واسعتين، بشرة خمرية يشوبها حمرة عفوية وملامح تُفصح عن توقّد في العاطفة وثقة بالنفس.. أمست امرأة من الماضي.. اختزنت الحزن في أعماقها مثل طوفان مدمر، ودائماً كانت تخبئ في جوانيتها جمراً تحت الرماد.. كثيراً ما كانت تدخل إلى بيت الخلاء وتبكي بكاء مراً.. تقول "ضيّعتني يا أبو سعيد كما ضيّعت عمرك وعمر الأولاد".. ومع أنها كانت تخفي دموعها بين الحين والآخر عندما أفاجئها أو اختلس النظرات إليها.. إلا أني كنت أستطيع أن أرى من وراء راحتيها تلك الأحزان المتدفقة تغزو وجهها الشاحب، لأنها بكل بساطة تحمل قلبها على صفحة وجهها.

نعمة ألِفت الحزن والوحدة معي.. انحنت قامتها وذبلت، راحت تتحدث في الليل بصمت عن الماضي ومع الأشياء.. صارت امرأة من الماضي بعد أن عجزت عن التفاعل مع الحاضر.. سمعتها تتحدث طويلاً مع السماء والقمر والأغنام والرمل والصحراء، ولم يعد لها أمل في الحياة غير ابنها سعيد وأخيه سعد وشقيقته سعديه.

فاجأتني ذات ليلة بأنها تعرف أدق التفاصيل عن تصرفاتي مع أهل القرية، رغم أنها لم تغادر حوش الدار إلا لحاجاتها الضرورية.. تعرف قصتي مع مريم، كما تعرف حكايتي مع حصّة وكل ما يدور في القرية.. القرية في نظرها حوش كبير يحتوي على غُرف زجاجية مفتوحة من الداخل بعضها على بعض.. بكت وهي تضيف أن حياتها أصابها الصدأ في الصحراء، وأصبحت كالطائر الذي مرّت على رقبته مدية حادة، فراح يرفرف من حرارة الروح، ويحاول التشبّث بما بقي له من أنفاس معدودة.. قالت وقالت.. وقالت إنها مثل المرأة الشامية ميادة، تخمّرت في الغربة وتعفّنت في هذه الديرة.

نعمة التي كانت ذات يوم من صاحبات الوجوه المعبّرة والجسد الرشيق المتناسق.. أمست اليوم منطوية على نفسها شاحبة الوجه ثقيلة الحركة، وما عاد ينطق منها غير الأوجاع والآلام وغربة النفس والروح.

كثيراً ما كانت تذكّرني بالوطن والأهل قبل أن تستسلم لرقادها الخفيف.. أغمضتُ عينيّ على هالة وجهها المليء بالتجاعيد، وظللتُ أتكوّر بجانبها، وأتذكّر كل شيء.. أمي وأبي اللذان رحلا إلى العالم الآخر أثناء غربتي ولم أكحل عينيّ برؤيتهما، رؤى في آماد بعيدة.. صحراء، نباح كلاب، عويل، عواء ذئاب، وجع، قهر، المجهول الذي يطاردني، اللعنات، الضياع، الذباب، العقارب والكلاب المسعورة.

أولادي كانوا يسمعون أن لهم أقارب في الوطن، وحين زاروهم ذات عطلة صيفية أيام طفولتهم، شعروا بغربتهم الحقيقية.. كانوا يلبسون الدشاديش البيضاء ويتحدثون بلهجة بدوية خالصة عن رعي الأغنام والرمال والصحراء.

سنوات طويلة أتت ورحلتْ.. رحل معها مدرسون ومدرسات وجاء غيرهم، وازداد عددهم.. ومع ذلك بقيت البدايات في الذاكرة.. جميلة ومريم وعبد الجليل وشريف ورحمة كانوا البدايات، وانغرسوا في الذاكرة..

عبد الجليل الأستاذ الطيب، بعث مبلغاً من المال لأخيه، ابتاع له أرضاً وبنى عليها بيتاً.. لكنه فوجئ أن الأرض مسجلة باسم أخيه الذي كان يثق به كل الثقة.. بعد عودته من إجازته الصيفية قبل عدة سنوات بدا متشائماً، بعد أن يئس من إقناع أخيه بالتنازل

عن سند الملكية.. ولأعوام ثلاثة تالية قضى عطلته الصيفية في الصحراء.. كان يائساً حتى وافته المنية أثر نوبة قلبية مفاجئة.

جميلة عادت إلى بلاد الشام، تزوجت وتوظفت.. مريم انتقلت إلى المدينة وانقطعت أخبارها.. رحمة هي الوحيدة التي انتقمت لنفسها من الأمير جفران.. فازت بقلبه واستدرجته إلى مصر حيث ابتاع لها شقة.. بعد عام انقطعت أخبارها هي الأخرى.

أنا بدوري خذلتني الصحراء حين أنهى سعيد دراسته الثانوية، فوجئت أنه لا يحق له الالتحاق بالمعاهد العليا أو الجامعات الحكومية.. فقط لأنه أجنبي ووافد.. تساءلتُ في قرارة نفسي إلى متى سأبقى غريباً وأجنبياً!.

كان عليّ أن أتخذ قراراً.. خامرتني فكرة الاستقالة، بحتُ بما في نفسي لأبي خالد الذي أقيم في بيته منذ سنوات طويلة بأني سأرحل.. لم يفكّر، وقال على الفور:

- الديرة مفتوحة للأجانب، والبيت ما يظل فارغ..

اعتقدتُ أن السنوات الطويلة التي عشتها في القرية ستشفع لي عند الفراق.. لكنه لم يبال كغيره من أبناء الديرة.. الأمير جفران هو الوحيد الذي وقف في طريقي وقال:

- يا دكتور، إنت تعرف كل أسرار الديرة، وهذا غير مسموح به للأجنبي.. وطالما عرفت، فأنت واحد منّا.. نعطيك إقامة دايمة ولا نتركك تغادر الديرة..

كلماته أثارت في نفسي الفضول.. الإقامة الطويلة تعني الانتماء للصحراء، الموت غريباً، تعني أن أستبدل الوطن ببيتٍ زجاجي وسط الصحراء.. الأمير قالها صراحة.. إما حياة الصحراء أو الرحيل بلا عودة.. أمران أحلاهما مرّ.. وكان عليّ أن أختار.

كانت نعمة تتقلّب في فراشها على جمر.. وكان عليّ أن أتخذ قراراً.. هزمتني الصحراء وبتُّ إنساناً مشوّش التفكير.. الكيّ آخر العلاج، والبتر آخر الحلول.. وعليّ أن أتقبّل هزيمتي بروح مرحة.. الثروة والصحراء أم متاهة الوطن.

ميادة لم تكن حالة الإنسان الأخير والوحيد في الصحراء.. كانت حالة واحدة من آلاف الحالات التي تم فيها اغتصاب عقول الغرباء وأجسادهم.. كانت حالة مثّلت لي القهر والوجع الجواني، الغربة والضياع والمنفى في بلاد التيه والملح والرمال المتحركة.

قمتُ وتمشيت في الغرفة.. قفزت صورتي إلى المرآة.. لم أُصدّق ما رأيت.. كنت أرتدي وزرة سوداء تتخللها خطوط عامودية زرقاء.. للمرة الأولى أشاهد جسدي محروقاً من شمس الصحراء.. تمعّنتُ في صورتي ثانية، لحية بيضاء ووجه أسمر محروق.. شعر أبيض مجعّد ومشعّث.. تراجعتُ إلى الوراء.. تحرك الجسد التائه وابتعد إلى الوراء أيضاً.. المرآة بدت معتمة بظلال خافتة.. حدّقتُ النظر وبحثتُ عن عقلي.. كان هناك وشم حفرته السنون وذاكرة تحت الصفر.. بدت الأفكار سراب

ودخان.. أحسستُ أني أعيش على كوكب آخر بعيداً عن الأرض، في مجرّة لا يراها المرء إلا في أحلامه.. وحين نظرتُ في وجهي ثانية، رأيت الأقرع يحدّق في المرآة.. أنا الأقرع الثاني في القرية.

شعرتُ أني أدور في دائرة مغلقة، ولا أدري كيف قفزت إلى ذاكرتي حكاية الثور الذي يدور حول الرحى مكمّم العينين لا يبرح مكانه.. تذكّرت الحمار الذي شاهدته ذات يوم في الطريق يحمل برسيماً على ظهره قبل أن تصدمه سيارة.. وعندما وقع وسط الطريق تناسى جروحه وأخذ يأكل البرسيم الذي تناثر أمامه.. تذكّرتُ سنوات العمر التي انقضت هباء منثوراً، وكلمات الأقرع ترن في أذني منذ أكثر من ربع قرن: "يا دكتور، الداخل مفقود، والراحل مولود".. تذكّرت الكذبة الكبرى التي عشتها طوال السنين الماضية وأهل الديرة ينعتونني ب "الدكتور".. وأخيراً تذكرتُ الفراشة التي تثقب شرنقتها الحريرية وتنطلق إلى الفضاء.. تذكرتُ الذين أحبهم في الوطن، فخالجني شعور بالأمان.. بلادي هي الأمان.

دائماً تأتي الحلول متأخرة..

الوطن لم أنسه يوماً، الحنين إليه كان يدفعني إلى البدايات، تماماً مثل سمك السلمون، ذلك النوع الذي يسبح ضد التيار في الأنهار، ليعود إلى منابعه التي وُلد فيها ويموت هناك بسلام.. ما

أجمل الوطن، الزهرة تذبل، الحياة تذبل، لكن الحنين إلى الوطن لا يذبل.

كان المدى فارغاً والبيوت صامتة، رمال وكثبان.. سراب وصحراء.. لا رعد ولا مطر يُبلّل ويُنعش الذاكرة، حسرات تسابق حسرات.. حسرات تتراكم وتندفع من الماضي إلى الحاضر.. الماضي حاضر، الحاضر شيخوخة، والمستقبل ندم.. تقطّن شعر الرأس وتغير لون البشرة إلى الاصفرار.. اللون الأصفر هو نهاية المطاف، والأبيض نهاية الذاكرة.. اختزنت ذاكرتي معالم البياض و"قصة جبر"، وسافرتْ إلى مقصلة الصحراء.. بدت ذاكرتي فارغة.. ذاكرة بلا مكان أو زمان، تعني ذاكرة للمرور بلا إشارات ضوئية.

****

السـيرة الذاتيـة للمؤلف

المؤلف في سطور

اسم الشهرة : إبراهيم عوض الله الفقيه

- قاص وروائي وباحث
- مواليد صوبـا / القدس / عام ١٩٤٦ م .
- حصل على ليسانس في الآداب (قسم اللغة العربية) .
- عمل مدرساً لمدة عشرة أعوام .
- يكتب القصة القصيرة والرواية.
- لا يعنيه ملاحقة التيارات الرائجة بقدر ما يعنيه الوجود على الساحة الأدبية بأعمال قوية متميزة.
- لا يكتب إلا إذا شعر أن لديه شيئاً جديداً يريد أن يقوله.
- عضو رابطة الكتاب الأردنيين.
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب.
- عضو اتحاد كتاب آسيا وإفريقيا.
- عضو اتحاد كتاب أمريكا اللاتينية.
- نشر العديد من المقالات والقصص القصيرة في الصحف والمجلات المحلية والعربية..

مؤلفات إبراهيم الفقيه

- **الروايات:**
- جذور في طريق التحرير- دار الزهراء، بيروت عام ١٩٧٤م.
- الهذيان – دار الزهراء، بيروت عام ١٩٧٥م .
- الصمت المعبر – دار عمار، عمان ١٩٩٢م.
- ما زال للصبار روح، دار النهضة، عمان ١٩٩٣م.
- الخريف واغتيال أحلام – دار النهضة، عمان ١٩٩٦م.
- الأرض الحافية- دار الينابيع، عمان ١٩٩٩م.
- نوافذ الغضب – دار الحرية، عمان ٢٠٠١م .
- ظمأ السنابل – دار اليازوري، عمان ٢٠٠٧م .
- أحلام يوسف – دار فضاءات، عمان ٢٠١١م
- قناديل الروح – دار فضاءات، عمان ٢٠١٣م
- ظلال العمر – الآن ناشرون وموزعون – عمان ٢٠١٨م
- **مجموعات قصصية :**
- القربان – دار عمار، عمان ١٩٩٠م
- فرسان السراب – دار أمواج، عمان ٢٠١٠م

- **تاريخ :**
- صوبا، إحدى قرى فلسطين المدمرة عام ١٩٤٨م في منطقة القدس – تاريخ وطن وحياة قرية – الطبعة الأولى عمان ١٩٩٦م

====

إبراهيم الفقيه

البريد الإلكتروني: faqeh46@hotmail.com

موقع صوبا: www.subaa.com